
عصر الهوية المفقودة
حسني شافعي

عصر الهوية المفقودة

حسنى عبد الحميد شافعى

طبعـــه ثانيـــه ١٩٩٠م

شكـــــــر

يتوجـه المـؤلف بالشكـر للســادة القراء على حسن استقبال الطبعـــة الأولى ونفاذها خلال ثلاث شهـــور من صـــــدورهـا .

الاهـــداء

الى المرحوم المعلم الصادق أبى رحمة الله
فقد نبت غرس الحق فى داخلى على يديـه
فوجدت ذاتى دائما فى قــول الصــدق
ولـو كـان على غير هوى السلطان .....

الشكر والتقدير لكل مرجع لهذا الكتاب كان له فضل فى تقديم جرعة من النسيج الفكرى الذى تقدمه الافكار الواردة فيه .... لا انسب الى نفسى فضلا فى هذا الكتاب فالفضل يرجـع الى الاساتذة اصحاب مراجعه الذين عشت معهم سنتين كاملتــين أنقل من افكارهم وأمزجها بافكارى حتى اكرمنى الله بهــذا الكتاب الذى بين يدى القارىء ....

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

انسان مثلك أنا عزيزى القارئ تجتمع فى نفسى مجموعة من الخصال وتركيبة من الخصائص فقد أكون مثلك من الذين منّ الله عليهم بالخير والستر والنجاح ، وقد أكون مثلك من الذين طبعت الدنيا على نفوسهم قسوة الحقد على نعم الله فى يد الآخرين فيزداد غضبهم اشتعالا ويزداد داخلهم تمزقا كلما طالعتهم نعمة الغير فتكاد سريرتهم لا تهدأ الا بتمنى زوال الخير من يد اصحابه .

وبين هذا الانسان أو ذاك اقف صامتا متأملا فى مفترق الطرق تزعجنى نظراتى المشدوهة للسلوكيات التى أصابت بنى وطنى من حولىّ .

أنا أبدا ما أعلن عن ثنائى أو إعجابى لجانب الجمال فى إنسان ما حتى لا يثور إنسان آخر حرم من نعمة الجمال وتفرغ عشقة للحقد والتحدى لصاحب هذه النعمة .

ولا أميل الى جانب الذكى حتى لا يقذفنى الغبى بلعنات الغباء .

ولا أميل الى جانب الناجح من بنى الانسان حتى لا تطعننى سموم وخناجر الفاشلين من حولى .

وأحمد الله أننى من الذين أنعم الله عليهم بنعمة الصراحة مع الذات لذلك فلا أجد حرجا أن اقول لك أننى قد أصابنى الاحباط من طوفان الدنيا وما فيها ولم أعد أفهم شيئا مسببا لسلوكيات وسيكولوجيات البشر من حولى .

وأبكى مع نفسى على حال هذا الزمان الذى يصيب الناجحين العظماء بقهر وحقد ومكيدة وطعنات الفاشلين .

وانتى كواحد من البشر من الذين يطلقون عليهم كبار الموظفين أصابنى الهلع والجزع خاصة ان مرض الوظائف وارتقائها قد استشرى من حولى وكلما ارتقيت سلم الوظائف لأعلى طالعتك هموم التفكك بين الرجال الكبار وأنانيتهم وتنازعهم على مقعد السلطان

واستجلاب المنافع الذاتية واسترضاء السلاطين الاكبر من اجل استمرارية البقاء في كرسي السلطنه أو قريبا منه على حد سواء .

وأكاد أصاب بالغثيان على الدوام مع ذلة الكبار حول مقعد السلطان يلتقطون الفتات الذى يلقيه لهم وتظل مهمة معاونى السلطان حتى وان كذب السلطان وقال نقيضا فى كل مرة فانهم فى كل مرة يتبارون فى مديح حكمته وصدقة وهكذا يصدق السلطان نفسه ويتخيل فى ذاته قدرات غير موجودة

انه كاذب ...

وانهم منافقـــون ....

لذلك ارجو ان تغفر لى عزيزى القارىء سخطى على كبار الموظفين أو عليه القوم فالغل والحسد أصبح هو السمة الغالبة على سلوكياتهم وأصبح عاديا أن تستمع الى نصائح كبارهم أن الانسان كلما ارتقى منصبا اكبر عليه ان ينحنى اكثر وان المطلوب قدر من المرونة مع الضمير تسمح بتناسيه احيانا وأن المطلوب قدر اكبر من المرونة مع كلمة الحق فلا مانع فى فلسفتهم من جعلها مطاطة بالقدر الذى يسمح بارضاء مزاج اصحاب السعادة ومعالى الكبراء .

وحتى هذا الذى ينحنى لمن يريد أن ينحنى له يمتلىء من داخلة حقدا وسموما نحو هذا المنحنى اليه وحسدا جارفا عليه متمنيا زوال النعمة من يدية حتى يظفر هو بموقعة لتبدأ مرحلة جديدة من الانحناءات لمن يكبره ولتبدأ مرحلة جديدة من التبعية الممزوجة بالنفاق .

وهكذا تجرفة هذه الحلقة المفرغة المعيبة فى تيارها الذى لا ينتهى مع طمع الدنيا وخسة النفس غير القانعة .

وأستغفر الله العظيم وأرجو أن يسامحنى الله سبحانه وتعالى فى هذا الوصف الذى أسوقه الان لحضراتكم فقبل ظهور سيدنا محمد سيد الخلق ونبينا المصطفى صلوات الله وسلامة عليه بين العرب كان الرهبان والاحبار هم قادة الناس فيما يتعلق الجوانب الدينيه وهى وظيفة كانت متوائمة تماما مع أطماعهم وتغلب الانانية على مضمون نفوسهم .

ولذلك كان ظهور النبى المصطفى صلى الله عليه وسلم مصدر غل وحسد فى نفوسهم المظلمة الكاذبة المريضة فكان لابد من قيامهم بتأليب أتباعهم ضد دين الله وضد دعوة النبى صلى الله عليه وسلم فكان ما كان من حروب والام حتى نصر الله كلمة الحق والدين الحق والتخيل هنا ماذا كان يحدث لو اختار الله سبحانه وتعالى النبى من بين هؤلاء الرهبان والاحبار ؟؟ .

لابد أنهم كانوا سيتصارعون من أجل أن تفشل دعوة المختار منهم - فمنهم من كان سيقول بلغة أيامنا هذه أنا اكبر منه سنا ومنهم من كان سيقول أنا أقدم منه فى الخدمة ومنهم من كان سيقول أنا أجيد عدة لغات أجنبية وخبرتى تجارية وهو صاحب خبرة ادارية فقط ومنهم من كان سيقول انه ليس مثقفا مثلى ومنهم من كان سيقول أنه ليس بكادر سياسى أو علمى ومنهم من كان سيقول أن رسالة الدكتوراه التى حصل عليها من كفر الدوار وأنا حصلت على رسالة الدكتوراه من جامعة بنسلوفنيا فى امريكا .

وهكذا يتناحر الفاشلون الحاقدون ولذلك كان اختيار الحق سبحانه وتعالى لنبيه المصطفى من الأميين وهكذا أيضا توارثنا الحقد وسمومة من الرهبان والأحبار وهى أساس الضياع الذى أصابنا فى نفوسنا ليضرب فيها بمعاول الهدم الخفى فى داخل النفوس البشرية .

وطالما أننا لسنا بأنبياء ولسنا من الخلفاء الراشدين أو الاولياء الصالحين فانه تظل الحقيقة الوحيدة المؤكدة ان ما حققة هؤلاء الأطهار من نجاح من أجل اعلاء كلمة الحق ودين الله كان أساسه نزع الحقد والحسد من النفوس وطهارة القلوب من الدنس .

وأننى كواحد من البشر اصطدمت ومازلت اصطدم فى حياتى بكثير من المتاعب والهموم وأخطأت وأصبت فى حياتى كأى بشر ولكننى حاولت دائما وأحاول بعناد أن تفوق محاسنى أخطائى وأن أقترب من الحسنى اكثر واكثر لا معاون لى فى خضم هذه المتاهات التى نعيشها سوى الله وارادة التحدى التى اؤمن بها .

والله أبدا ما كنت ولا سوف أكون أبدا باذن الله إمعة لأحد عملا بقول الرسول المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم :

" لا يكن احدكم امعة "

ولعل سبيلي للنجاح في حياتي والحمد لله امر لم يفهمة من حولي فانا احس دائما أنني الأ قوى بفضل الله أشق طريقي نحو النجاح بفضل الله دون أن ألتفت للآخرين فإنني مؤمن عن إعتناق بأن قناعتي بالحق هي التي تقودني دون مبالاه برؤية الحاقدين وعشاق الحقد وأساتذة الشكاوى الكيدية ورهبان إلقاء التهم الكاذبة على الآخرين ..

كما أن قناعتي بالحق وقول ما أعنيه وأعتقده بدون خوف أو وجل من كبير أو صغير هي أساس فلسفة عنادي في حياتي وإهداري لسفه السفهاء عملا بقول الشاعر العربي :

لو أن كل كلب عوى ألقمته حجرا

لأصبح الصخر مثقالا بدينار

وآفة المجتمع اليوم كباره فهم القدوة وبغير القدوة الصالحة لا صلاح ولا إصلاح وليس لي على الكبار من ولاية فأنا واحد من الذين أفاقوا بفضل الله مبكرا .

لست من القديسين .

ولكنني إنسان كانت لي أخطائي الشخصية أتذكرها مع نفسي فقط وأخجل من نفسي كلما تذكرتها لكن خجلي مع نفسي هو الذي وضع أقدامي مبكرا على بداية الطريق الصحيح وأصبح شغلي الشاغل أن أضع الدنيا وزينتها في حجمها الصحيح أي تحت أقدامي حتى تمكنت أن أجعل من مقعد السلطة الذي أعتليه مقعدا من أجل العمل وليس من أجل النزوة وسماع مديح الآخرين .

ولتصدقني عزيزي القارئ أنك لن تجد نفسك كإنسان إلا إذا تعاملت مع أخطائك في الماضي وواجهت نفسك بها بصدق فهي وسيلة خلاصك من عيوبك الذاتية وبداية تصحيح مسار حياتك وهذا يجعلني ويجعلك دائما تضع الآية الكريمة من سورة الكهف نصب أعيننا .

إذ يقول الله سبحانه وتعالى :

" ووضع الكتاب ، فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون : ياويلتنا مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا احصاها ووجدوا ماعملوا حاضرا ولايظلم ربك احدا "

" صدق الله العظيم "

فالقضية اليوم هى قضية الكبار الذين تتكالب غالبيتهم العظمى على مفاتن الدنيا ومباهجها وإننى أعتقد أن الأخطاء الشخصية التى وقعت فيها فى مستهل حياتى وشبابى بسبب جهلى بعلوم الدين وأنا اليوم لا أدعى علما أو تفقها بعلوم الدين ولكننى فقط بدأت أجتهد للحاق بقطار الحقيقة التى تعيننى على تثبيت أقدامى بإذن الله على الطريق الصحيح خشية من يوم لاينفع فيه مال ولابنون .

غير أننى أدعو الله أن يغفر للكبار ممن سبقونى الذين لم يفرضوا علينا فى صغرنا ومدارسنا وتعليمنا مبادئ ديننا الحنيف كأساس فى تعليمنا ولكننا كنا وللأسف ندرس علومنا الدنيوية من إقتصاد ومحاسبة ورياضة وتاريخ وعلوم وفلسفة وخلافة بالعربية والإنجليزية وندرس الدين كمادة ثانوية لا رسوب فيها وهو أمر أراه كارثة بحق فالأولى أن ندرس منذ بدء دراستنا علوم الدين والفقه والشريعة فى توازٍ تام مع علوم الدنيا حتى تكون تربية كاملة متكاملة لتكون الغلبة فى النهاية لذوى الخلق والأخلاق ولتكون القلة هى تلك التى تعيش فى رذيلة النفاق وكواليس الدنس فى دنيا اللامعقول الذى نعيشه اليوم . .

ويقاطعنى صديقى المتألم فيأتى لزيارتى وأنا أكتب هذه السطور فوجدت ضروريا أن أعرض عليكم فى مقدمتى سبب بكائه وتألمه وتأثره وحنقه على مجتمعه . .

جاءنى يرجونى أن أبحث له عن صديق من أجل ترقيته لدرجة وكيل الوزارة الشاغرة وحاولت أن أهدأ ثائرته بأن كل إنسان منا لن ينال سوى ماقسم الله له ، لكنه كان أصما أعمى فى غيبوبة الدنيا لايرى ولايسمع ولايفهم سوى أن يحصل على مقعد وكالة الوزارة فقد سبقه فلان وفلان وفلان وكلهم أدنى وأحط لكنه لم يستطع أن يقيم الولائم ولا السهرات ولم يستطع أن يرسل الهدايا ولم يستطع أن ينحنى أكثر وأكثر ..

ويأتى آخر فى اليوم التالى يشكو هموم الدنيا وضيق ذات اليد فالمرتب بالكاد لايكفى شراء الخبز والأولاد فى أربعة مراحل تعليمية وهو فى حاجة الى عمل إضافى ليعين نفسه على إستيفاء بعض الضروريات . . ويجئ آخر أعلم أنه فى يسر من العيش وهو من أعلام النفاق فى عالم كبار الموظفين يرجوننى مفاتحة صديقى فلان بيه الذى يكبرد فى دنيا الوظائف بكثير لكى يتذكره فى كل سنة بعدة سفريات للخارج حتى يحسن من أوضاعه فلا يعقل من وجهة نظره أن يكون عدد السيارات التى تدعى " زلكة " فى شوارعنا أكثر من عدد

السيارات الفيات ولما كانت سيارة سيادته من النوع الذى يساوى حوالى سبعين ألفا فقط من الجنيهات فهو يحس بالمرارة والحسرة والإحباط كلما رأى أقرانه يركبون الزلكة .

وآخر جاءنى يشكو أن الفساد قد إستشرى فى كل مكان حتى فى ذمم بعض القضاه وأن بعض كبار المحامين يتقاضون مبالغ رهيبه من أجل إستصدار أحكام معينه لصالح موكليهم .

وآخر جاء ومعه قائمة بأسماء بعض الكبار ممن إغترفوا بعض المليارات أموالا حراما وأودعوها خارج مصر وأنه إكتشف الأمر أثناء تواجده معهم فى الخارج وقد علمت بعد ذلك أنه إختلف معهم فى القسمة فأراد أن يطيح بهم ليحل محلهم فى النهب والسلب وهكذا أصبنا جميعا بحالة من إنفصام الشخصية فالحديث الجانبى بين الكافة عن الفساد والفساد دون أن يفكر كل منا فى أن يبدأ بذاته وبنفسه أولا فلو أنصلح حال كل منا لانصلحت أحوال مجتمعنا بأكمله لكن قضية مجتمعنا اليوم هى ليست فى رأيى بالقضية الإقتصادية أو غيرها بقدر ماهى قضية أخلاقية بالدرجة الأولى لذلك فإن العلاج يجب أن يكون حاسما وفوريا .

لقد أصاب المرض الجميع حكاما ومحكومين وأصبحنا جميعا أشبه بمن فقد أحشاء عقله أمام صخب الأحداث العاتيه التى تتراقص حولنا ولا أخفى عليك عزيزى القارئ أننى لا أستطيع مقاومة الأفكار والمشاعر المكبوته الثائرة فى داخلى تحاول أن ترى النور على سطح لهيب مستعر لم تهدأ ثائرته بعد .

وأحس بقلبى يسابق هذه السطور التى أكتبها وهو يسأل عن موقف هؤلاء السكارى أصحاب الهوية المفقودة .

هل يظلون هكذا ؟ وإلى متى ؟ بلا هويه ؟

أم أن أصحاب الهوية المفقودة سيظلون دائما هائمين فى عشق عروش الأفك والكذب وبيع الذات ؟؟

أم أنهم سيظلون فى وهم السلطان والسلطة التى تختبئ وراء صولجاناتها خشيتهم من المستقبل المجهول ؟؟

إنهم حقيقة ليسوا أكثر من كذبة ضخمة صنعها الناس بأيديهم ثم صدقوها ونادوا بها وجعلوا منها شعارات يتغنى بها الضائعون من عبدة الكراسي لأصحاب السلطة الزائفة .

هذه سطوري عزيزي القارئ أخطها لك ولي ولكل بني وطني لايعتري قلمي حين يكتبها أي خوف أو تردد فأمانة الكلمة وصدق الرأي هما أساس صدق الرؤية وهما أغلى وأعز ما أمتلكه اليوم في هذا الزمان المكفهر الذي تميع فيه المنطق وإختلط فيه الحابل بالنابل وتفوقت فيه الآلام على حدود الأزمنة والأمكنة فتحولنا بصنع من أنفسنا الى مخلوقات عجيبة ضلت بعض الوقت أو كل الوقت لا أعلم .

قد يعود البعض منا إلى رشده أحيانا فيتذكر أنه إنسان حمل الأمانة منذ بدء الخليقة وعليه أن يفيق تماما حتى يتمكن من حملها كل الوقت قبل أن يفوت الأوان .

لابد إذن من الفكاك من الهوة السحيقة التي وقع فيها الجميع من حولي وبعيدا عن الفلاسفة والمأجورين لابد أن ننزع النصل المسموم من أجسادنا حتى تدب الحياة مرة أخرى في دمائنا .

وعندئذ نستطيع أن نقول : نحن لنا هوية ...

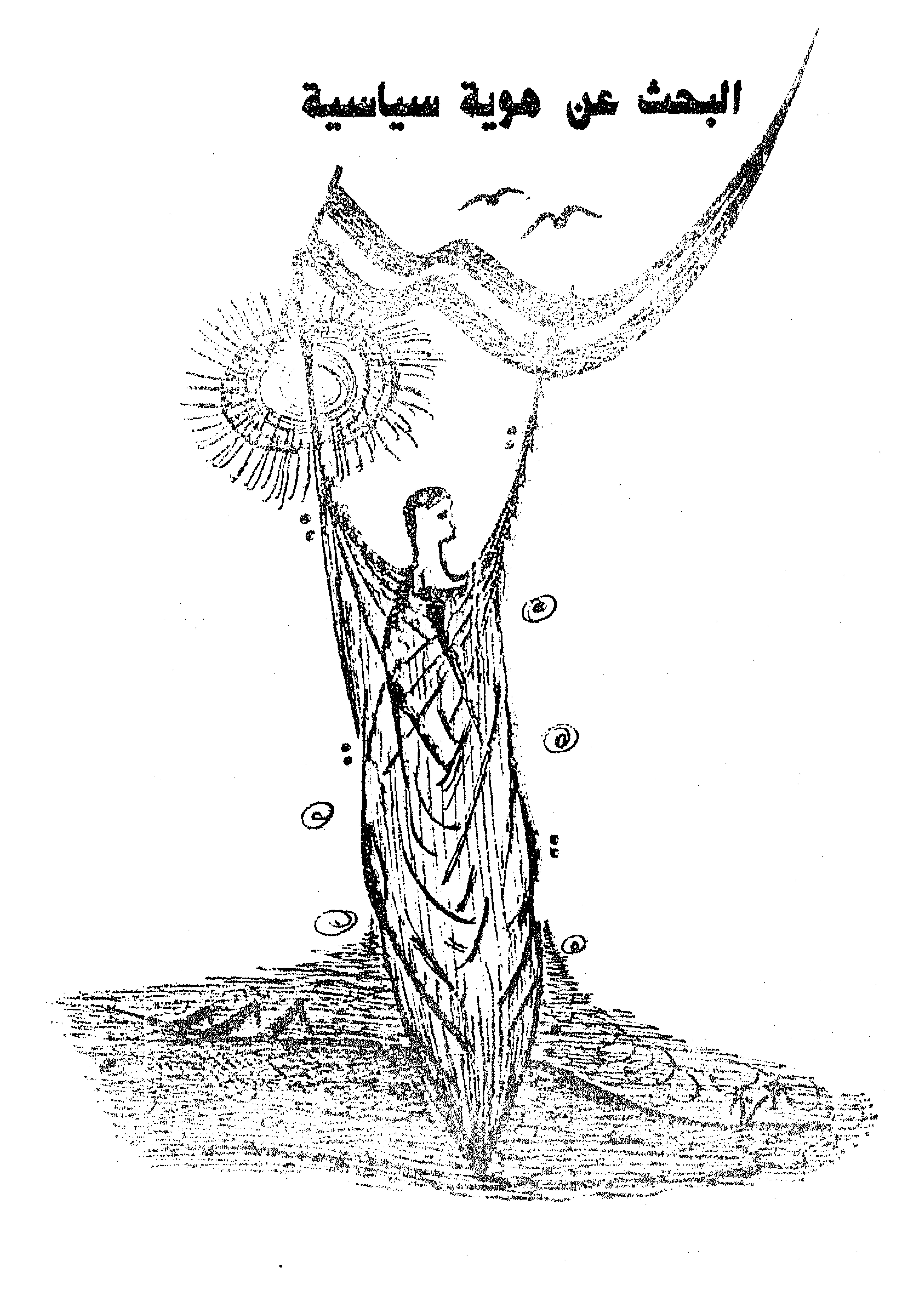
المؤلف

حسني عبد الحميد شافعي

أكتوبر ١٩٨٩

الفصل الأول

البحث عن هوية سياسية



١
مفهوم الهوية السياسية

حين أناقش معك عزيزى القارئ مضمون الهوية السياسية لمجتمعنا فإنه بادئ ذى بدء لابد لكى نصل الى هوية سياسية ذات أبعاد واضحه بعيدا عما أصابنا به تلامذة الإتحاد الإشتراكى الذين تربوا على دفوف الموالد وأفرزوا جيلا من المنتفعين عشاق التشدق بالشرف والمثل والمبادئ وهم أبعد مايكونوا عنها كان الكلام هو حرفة تضمن لهم العيش المدال حتى ولو كان على حساب عرق الكادحين . .

لذلك ولما كانت هذه الفئة تمثل اليوم طبقة نشاذ غريبة على مجتمعنا تنخر فى عظامه النقية وتلوثه بشعارات كاذبة ليتمخض الأمر عن فقدان الهوية السياسية المصرية لإنعدام الثقة فى فلسفة السياسة لعدم وجود النماذج التى يستشعر منها الأفراد قدرة على القيادة النزيهه وهو مادفع الغالبية العظمى الى السلبية مع الإنتخابات فى مصر وهى حقيقة لايمكن أن نضلل أنفسنا فننكرها . .

إننى لا أنتمى إلى حزب من الأحزاب القائمة سواء أكان وطنيا أو معارضا أو تحت أى مسمى لإيمانى بأن التجربة الحزبيه فى مصر تجربة هزلية لا تعبر عن فكر أو هوية سياسية لماذا ؟؟

لأن أول دعائم الهوية السياسية هى حرية الرأى وأصالة الإعتناق للذاتيه الكبرى للأم مصر بالقدر الذى يعكس الإنتماء المطلق لها أما أعدى أعداء الهوية السياسية فهو فى رأيى السلبية لأنها تعبير دموى عن ضياع أو فقدان الإنتماء للنظام .

لذلك أرى أن القضية المحورية الأساسية للعثور على هويتنا السياسية المفقودة هو إحداث تغييرات جذرية فى السلوك الإنسانى المصرى وأول عناصر التغيير المطلوب هو تغيير سلوكيات أصحاب السلطة فى كل موقع ومعالجة المرض الخطير وأقصد به مرض السيطرة الذى أصبح مرضا إجتماعيا خطيرا يهدد أمن مصر لأنه أدى لإصابة القيادات فى مصر

بأوهام العظمـة وسيطرة الأنا . . وأننى لا أغفر للطبقة الجديدة من تجـار الإشتراكية وأقصد بهم – كما سأوضح أكثر فيما بعد – تلامـذة الإتحاد الإشتراكى أو جبهة المنتفعين بالسلطة لأنهم طبقة تسببت فى إصابة سلوك الإنسان المصرى بإنفصام فى الشخصية لأسباب عديدة ومتداخلة . .

لقد جاءت السلبيـة المطلقـة تعبيرا عن الرفض المطلق للأشياء حلوها ومرهـا لفقدان وإنعدام الثقـة ثم جاءت حالة من العدوانية أخرجت للسطح طفحا عدوانيا فى نفوس الكثيرين . .

وصدقونى أن القضية فى مصر تبدأ بضرورة تضميـد ما أصاب سلوك الإنسان المصرى من جروح وتلوث بداية من فقدان إحترام الذات المتبادل بين الجميع وينتهى تدريجيـا بخيبة الأمل والإحباط المدمـر الذى أصاب السلوك فدفع الكثيرين إلى حـالة من العزلة واليأس المعلن وفقدان الثقة فى كل شـئ بداية من النفس ذاتها وهو ما أدى فى إعتقادى إلى حدوث إنفصام فى الشخصية المصرية يمنع تماما ظهـور الهوية السياسية المصريـة . . لمـاذا ؟

لأن الإنسان يتصارع داخليا مع أفكاره ومشاعره الشخصية وإرادته الداخلية وكلها قضايا مجتمعه تدفع صاحب السلطة مثلا وفى موقع ما أن يتعامل بشخصيتين الأولى مع مرؤسيه والثانيه مع رؤسائـه فهو مع مرؤوسيه موهوما بسيطرة أوهام العظمـة عليه وينسى مع الأسف من فرط النفاق والمداهنـة حقيقة ذاته فيتخيل نفسه عملاقا فإذا ماترك مرؤسيه وتقدم نحو رئاسته تجد هذا العملاق شخصا آخر قد تحول الى قزم صغير ينحنى ويخفض صوته ويوافق بلا وعى على كل مايقوله صاحب السلطة الأكبر فإذا ما إنصرف من حضرة سلطانه تجده مزمجـرا كنمر ثائر لكنـه مع الأسف نمـر من ورق . .

وفى هذا الصدد ليسمح لى القارئ ان أذكر واقعة طريفة حدثت أمامى بينما كنت على سفر فى القطار حيث إضطرتنى ظروف سفر مفاجئ للأسكنـدرية الى السفر واقفا فكان لقائى بصديق عزيز يشغل منصبا مرموقا وله نفس ظروفى فى السفر فوقفنا سويا نتجـاذب أطراف الحديث وإذا به فجأة يستدير تماما فى مواجهتى ويقول لى أن فلانا قادما وأنه لايرغب فى التحدث إليه أو السلام عليه لأنه شخص كذا وكذا وينعتـه بأقذع الأوصاف ، وإذا

بهذا الشخص يضع يده على كتف صديقى فينظر إليه مندهشا ويندفع بلا وعى تعبيرا عن فرحته باللقاء فيحتضنــه ويسأل عن صحة معاليـه وعن أحوال الهانم والأنجـال الأعزاء وتعجبت لهذا التحول العكسى فى لحظة فسألته مستغـربا منه هذا السلوك بعد إنصراف هذا الشخص فإذا به يقول وماذا أفعل هكذا حالنا في مصر كلما إرتقيت سلم الوظائف إزدادت درجة الإنحناء والرياء والنفـاق ..

ولعل صديقى هذا يقرأ الكتاب الآن لكنها حقيقة أن أقول إنه نموذج لمصريين كثيرين يحتلون مواقع سلطة مرموقـة لكنهم للأسف يعانـون من مرض العصر وهو إنفصـام الشخصية لذلك فمعـذرة لصديقى فهو ليس شاذا بالطبـع لأنه أصبـح جزءا من الظاهرة الإجتماعية العامة . . هذه الظاهرة الإجتماعية تجعل كل إنسان عبارة عن إثنين إنسان خارجى يواجـه به الناس وإنسان فى داخله يواجه به نفسه وأحيانا بل غالبا لايستطيع حتى أن يواجه به نفسه وهنا تبدو أولى خطوات إبتعاد الإنسان عن الكفاح من أجل الحرية والكرامة وهما من وجهة نظرى الشخصى جناحى الهوية السياسية . .

وإنه لبحق فإن أخطر مايواجه الهوية السياسية المصرية هو إحساس أى مصرى بأنه يعانى أى نوع من أنواع الظلم أو القهر سواء أكان هذا القهر بفعل قوى خارجيه أو بفعل قوى داخليه كأن يتعرض لظلم أو قهـر أصحاب السلطة فى الداخل على أى مستوى وهنا يجب أن أذكر أن السوط الذى قهر العبيد في الماضى كان هو ذات الأداة التي جلد بها العبيد الطغاه عندما إشتعلت ثوراتهم لتبقى الحقيقة الدائمة في سلوكيات الناس وهى أن أى قهر يتعرضون له يولد لديهم إحساسا بالبغض والكراهية ويولد لديهم إحساسا بالعدوانية سواء العدوانية المعلنة أو العدوانيه المستتـرة . .

وفى رأيى أن العدوانية المستترة هى أحسن تعريف للسلبية التى يعانى منها شارع السلوك المصرى فى أيامنا هذه وتبقى الحاجة دائما الى التغيير من أجل إستعادة الحرية إذا أحس الناس بفقدها بأى صورة من الصور . . والحرية التى أعنيها هنا ليست حرية چون ستيوارت وهى أن يفعل المرء أى شئ وقتما يشاء لأن هذه ليست حرية وإنما هى فوضى لأنه لابد وأن تتعارض الحرية بين رغبات ومشيئة الأفراد المختلفة وهنا تظهر الحاجة الى عدالة الحاكم ليوزع الحرية بين الجميع بالتساوى ليجعل من الحرية إطارا يكفل للجميع حكاما

ومحكومين عيشا كريما ينبض أولا بحب الله وثانيا بحب الوطن والإنتمـاء اللامحدود له . .

ويعجبنى معنى للحريه قرأته سلفا فى أحد الكتب لكننى ومعذرة لصاحبه لا أذكـره يقول فيه إن الحرية وإن كانت جوهر الإنسانيه إلا أنها أبدا لاتعبر عن الإنفلات من القيود أو الضوابط وهذا يعنى أن الحرية ليست غاية فى حد ذاتها وإنما هى وسيلة لابد لمن يسعى إليها أن يسأل نفسه بداءة لماذا هو يريدها ؟

يقول چـان چـاك روســو عن الحريــه :

" دع الطفل يعتقد أنه دائما المتحكم مع أنك أنت أى المعلم من يسيطر عليه فى الواقع وليس ثمـة إخضاع كامل كالإخضاع الذى يحفظ مظهر الحرية كان المرء بهذه الطريقة يأسر الإرادة نفسها فالطفل المسكين الذى لايعرف شيئا ولايستطيع عمل شئ ولم يتعلم شئ أليس هو تحت رحمتك ؟

ألا يمكنك أن ترتب كل شئ فى العالم الذى يحيط به ؟

أليس بمقدورك التأثير عليه كما تشتهى ؟

أليس عمله ولعبه ومزاجه كلها فى يديك وبدون أن يعرف ؟

ما من شك أنه يجب أن لايعمل إلا مايريد ولكنه ينبغى أن لايريد إلا ماتريده أنت أن يعمله وينبغى أن لايتخذ أية خطـوة لا تتوقعها أنت ولاينبغى أن لايفتح فمه دون أن تكون على علم بما سيقول ؟

ومن الطبيعى أننى لا أوافق على مفهوم چان چاك روسو للحريه بهذه المعانى لأنها تعنى أن فلسفة روسو تقوم على إعتناقه إفتراضا خاطئا هو أنه لن يكون هناك إساءة فى إستعمال السلطة وهو أمر محال ولن يتحقق إلا إذا تغلبت نزعة الخير والحق أى عندما تتغلب الجوانب الروحانيه على أعماق أصحاب السلطة وهو مانجده فقط فى فلسفة الإسلام التى أقرها القرآن الكريم والسنة المحمدية حيث قدمت أسسا واضحة للتعامل بين بنى الإنسان حكاما ومحكومين . .

فالحرية إذن وكما ذكر لاتعنى الفوضى وإنما الحرية يجب أن تكون عقيدة مستقرة فى داخل الجميع حكاما بلا تسلط ومحكومين بلا فوضى وبهذه العقيدة يمكن للحرية أن تكون دافعا لسلوكيات الأفراد الى الإجتماع على مقاومة السيطرة إذا جاوزت الحد الذى

يحافظ على كرامة المحكومين ، كما أنها تعنى قدرة الحاكم على كبح جماح المحكومين إذا خرجوا عن الإطار الإجتماعى العام للمحكومين بحيث تصبح السيطرة عليه رغبة جماعية تعكس إرادة الحفاظ على الحرية . .

لذلك وطالما أن كرامة المحكومين جزء أساسى فى نسيج الحرية تصبح كرامة بنى الإنسان الجناح الثانى الهام فى وضع الهوية السياسية والكرامة التى أقصدها ببساطة هو معنى نفسى يرتبط بسلوك إنسانى معين فنحن مثلا لايمكن أن نمتدح أو نثنى على شخص يتذلل أو يستعطف حتى ولو كان يرتقى أعلى المناصب ومن منا يمكن أن يحترم نماذج كالتى إبتلينا بها من رافعى الشعارات الذين يرفعون شعاراً اليوم لان نفعهم الشخصى فيه فاذا انقضى النفع تحولوا الى شعار آخر من أجل نفع جديد يحاربون بالضلال من أجله . . إنهم الطبقة الجديدة على مجتمعنا اليوم وهم بإذن الله فى الدرك الأسفل من النار .

هؤلاء الضائعون تجدهم أمام صاحب السلطان أذلة كأنهم جبلوا على ذل العبودية فلا رأى لهم إلا رأى السلطان فإذا ما إستدار صاحب السلطان إنقلبوا عليه نمورا من ورق وأسودا من هشيم يتخيلون نباحهم زئيرا فهل يمكن أن يكون هؤلاء من ذوى الكرامة ؟؟ .

الكرامة هى إحساس نابع من ذات الإنسان أنه يعمل فى جو عادل ومنصف فى إطار عام يقدر قيمته كإنسان أولا ويحترم ذاتيته كإنسان ثانيا فلا يجبره على أمر مرفوض أو يرغمه على فكر وسلوك يجرح كبريائه وهنا أجد أن أخطر شئ تتعرض له الكرامة الإنسانية أن تدفع الظروف الإقتصادية الإنسان الى التجاوز عن المثاليات والأخلاقيات الخاصة به فيندفع نحو سلوكيات تحتمها عليه حاجته الى توفير القوت وهنا يحدث إنفصام أسود للشخصية فهو يمارس السلوك البغيض مدفوعا بحاجته فيكون رد الفعل الداخلى عدوانيا لأنه جرح فى كرامته كإنسان والتى يعتبرها جزء من كبرياء مفقودة قهرتها فيها حاجاته وظروفة الإقتصادية . .

والكرامة بهذا المنظور هى أخطر مايؤثر فى سلوكيات الإنسان المصرى اليوم وهى نابعة من حاجة كل إنسان فينا الى تقديرة والثناء عليه كلما حققنا الإجادة وكلما قدمنا شيئا نافعا أو سلكنا سلوكا حميدا لأن الإنسان المصرى كلما إصطدم بأن الثناء والتقدير يوجه

توجيها سيئـا نحو القريب أو النسيب أو تنفيذا لإرادة صاحب سلطة أو غير ذلك من النماذج القذرة التي إمتلأ بها مجتمعنا اليوم يكون رد الفعل اكثر عدوانية في نفوس الأفراد لأنه يجرح كرامتهم ويضربها فى مقتل لعدم إحساس الناس بالعداله ويفقد الناس بالتبعية إنتمائهم وولائهم ويصبح من المتعذر أن يكون لهم هوية سياسية واضحة لذلك فمن الحتمى أن نعيد للناس أولا وقبل كل شئ ثقتهم فى قيمتهم وكرامتهم حتى يأتى السلوك صالحا فالسلوك الصالح القويم تجده متوافقا تماما مع الحرية بل أن أعظم معانى الحرية فى تقديرى تجده فى التوافق بين الحريه وهذا السلوك لمـاذا ؟

لأن الإنسان الصالح الذى يسلك سلوكا صالحا وكان بإمكانه أن يسلك سلوكا معاكسا أو سيئا هذا الإنسان هو وحده الإنسان الذى يعكس معنى الحرية لأنه يتصرف بكامل قناعته فى سلوكه الإجتماعى لذلك تتلازم الحرية والكرامة فى صنع الهوية السياسية لأى مجتمع فى أى وقت وأى مكان . .

وفى إعتقادى وبعيدا عن منظور الغرب وأيدلوچياتـه ومنظـور الشرف وأيديولوچياته فإن مفهوم الحرية عندى له معنى واحد من خلال المنظور الإسلامى الذى يجعل للجانب الروحى الغلبة دائما على الجانب المادى وتصبح دائما الحرية والكرامـة رمزا للخير والأمن والأمـان . .

٢

جذور فقد الهـوية السياسية المصريـة

أنا لا أكذب ولكنى لا أصدق من يدعى أن مصرا بها نظام سياسى يقوم على هذه البدعة المسماه بالديموقراطية بمعنى حرية الرأى وحرية الشعب فى إختيار ممثليه فى البرلمان وفى إختيار رئيس الدوله من بين أكثر من إختيار لكل منهج خاص وبرنامج محدد فى إطار تام من حرية تامة للصحافة تنطق بحق بنبض الشعب ومساوئ الحاكم والمحكومين . .

هذا غير موجود فى مصر ، وفى غيرها من النماذج الشبيهة فما الديمقراطيه سوي شعارات غير قائمه على حقيقة ولا اعتقد ان حرية الرأي هي ان يسمح لبعض الجرائد الحزبية التي يطلق عليها جرائد المعارضه ان تقول شيئا ضد النظام أو لا تقول ..

كما ان الديمقراطيه لا تعنى ان يراس رئيس الدوله حزبا من الاحزاب التي قامت جميعا علي بنيان هش من صنع السلطه ..

وحتي الان ومن وجهه نظري لا يوجد في مصر حتي الان حزب واحد باي مسمي يعبر عن قاعدة جماهيرية وإنما يمكن ان تسمي النظام القائم في مصر بعد ١٩٥٢ بالنظام الديكتاتوري المتستر وراء الشعارات الديمقراطية لذلك فمن الاكتوبة ان نطلق صفه الديمقراطية علي نظام ما بعد ١٩٥٢ .

ولست هنا بصدد الدفاع عن الديموقراطيه أو الديكتاتوريه بل أننى أحاول أن أحدد الجذور التى تسببت فى فقد الهوية السياسية المصرية وقد بحثت عن هذه الجذور فلم أجد لها سببا سوى إحداث حركة ٢٣ يوليو وماصنعته بمصر من هذه الزاوية بالتحديد وهى جذور الهوية السياسية أما تقييم الحركة ككـل فهو موضع أفكار أساتذة كثيرون قدمـوا رؤيتهم فى هذا الصدد . .

ونحن الآن على مشارف عام ١٩٩٠ لماذا أقدم رؤيتى الخاصة بأن أسباب فقد الهويـة السياسية لمصر كان بسبب حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ؟ لأن المدة التى إنقضت منذ قيام

هذه الحركة وحتى الآن أصبحت كافية تماما لأى مصرى أن يعيد دراساته لدراسة آثارها وأبعادها بحياد تام وبدون خصومة مع أحد فلا أنا أحد أبناء الإقطاعيين أصفى أى حسابات من أى نوع ولا أنا أحد أصحاب الكراسى التى أقالتها الحركة المشار اليها . .

وتقوم وجهة نظرى فى أن هذه الحركة هى التى أفقدت مصر الهوية السياسية لأن قضية الديموقراطية وبحق لم تكن أبدا فى عقيدة من قاموا بأحداث يوليو ١٩٥٢ بداية من ٩ سبتمبر ١٩٥٢ حيث تم إغتيال عدد كبير من السياسيين وحوكموا إستثنائيا أمام محكمة الحركة ثم مذبحة الإخوان المسلمين بعد محاولة إغتيال جمال عبد الناصر فى الإسكندرية فى ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤ . .

قضية الديموقراطية كانت غائبة تماما عن فكر ضباط حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ خاصة وأن نية هؤلاء الضباط أصبحت واضحة تماما بعد مد الفترة الإنتقالية ذلك الوقت لثلاث سنوات لمجلس القيادة تحكموا فيه كليا وجزئيا فى كل السلطات التنفيذية والتشريعية وكانت هذه فى رأيى بداية النهاية للهوية السياسية المصرية .

كان من المفروض أن يقوم مجتمع مابعد حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ على أسس ديمقراطية إلا أن صناع الحركة أخرجوا حركتهم تماما خارج هذا المعنى وإعتمدوا على غسيل مخ وقتى للجماهير إعتمادا على بعض الأحداث مثل جلاء الإنجليز والعدوان الثلاثى وكلها أحداث إستثمرها عبد الناصر لإبراز دوره والوصول الى الزعامة والشعبية فى عقيدة الجماهير . .

قد يكون عبد الناصر سببا أو لايكون وقد يكون شريكا وقد لايكون لكن الأحداث العاتية التى مرت بها مصر منذ ١٩٥٢ وحتى ١٩٨٩ كلها أحداث متداخلة لايمكن أن نفصل جزء منها عن الآخر . .

مانحن فيه اليوم من ظروف هو تراكمات السنين وحصاد المأساة ولكن أى مأساة . .

إن أى مأساة ومهما كانت نتائجها تعود بلا شك الى من بذر بذرتها وبذرة فقد الهوية السياسية المصرية بدأت ومن صنع ضباط حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ عندما أنشأوا هذا الجهاز المويوء المسمى بالإتحاد القومى والذى كانت نواته هيئة التحرير . .

والإتحاد القومى حقيقة ليس أكثر من تنظيم مماثل تماما لنموذج الديكتاتورية لسالازار البرتغال التى أهدرت بفاشيتها حرية وكرامة البرتغاليين لأكثر من أربعين سنه . .

ولأول مرة بعد حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تقوم أول إنتخابات برلمانيه فلو كان فى عقيدة ضباط هذه الحركة إيمان بالديموقراطية الحقة لما صنعوا بداءة أول إنتخابات بنظام التفصيل حيث لاتقوم على قاعدة جماهيرية حقيقية . . لماذا ؟

لأن هذا الجهاز المشؤم المسمى بالإتحاد القومى كان له حق الغاء ترشيح أى مواطن دون إبداء الأسباب فكان ذلك أول مسمار فى نعش الهوية السياسية المصرية . .

ثم كان السند الثانى لقادة حركة ٢٣ يوليو فى الإستمرارية وهو إعتمادها على تجميع السلطات الإدارية تماما فى أيديها إعتمادا على قتل رأى المعارضين نهائيا منذ اللحظة الأولى سواء بالحرمان من الترشيح للبرلمان أو بالإعتقال فكان هذا هو السبب الثانى فى قتل الهوية السياسية المصرية . .

ثم كان السبب الثالث فى عام ١٩٦٠ حيث صدرت قرارات سميت بقرارات تنظيم الصحافة فأصبحت ملكا للنظام الحاكم فخرجت بذلك عن إطار التعبير الصادق عن رأى الشعب ليكون ذلك سببا ثالثا فى قتل الهوية السياسية . .

ثم كان السبب الرابع فى قتل الهوية السياسية المصرية من خلال خلق كوادر إدارية فى المواقع المختلفة الإنتاجية وغير الإنتاجية رأت حركة ٢٣ يوليو أنهم أولى بإدارة هذه المواقع ضمانا لولائهم لذلك كان إختيارهم من العسكريين من أقرانهم ليبقى السواد الأعظم المسيطر على كافة المناصب الكبرى بداية من العسكريين ونهاية بالعسكريين . .

لقد خطط قادة حركة ٢٣ يوليو لأنفسهم كما خططوا لمن حلوا محلهم فى قمة السلطة لذلك كان أسلوب القيادة هو السبب الخامس فى قتل الهوية السياسية المصرية وهو إحاطة قائد حركة ٢٣ يوليو لنفسة بأسطورة من أجهزة الأمن المتعددة خوفا على نفسه أن يفقد الكرسى فجأة كما فقده سابقيه فجأة فكان لهذه الأجهزة الأمنية السبق فى الإعتقال والنكاية بالناس حتى ولو لمجرد الإشتباه حرصا على أمن الحاكم ولو بمزيد من إفتعال أحداث الحفاظ على أمنه من أجل مزيد من ضمان البقاء فى كراسيهم هم الآخرين . .

وهكذا أصبح جهاز الإتحاد القومى وأجهزة الأمن هى وسيلة الحكم بشكله الديكتاتورى السافر الذى يعتمد على هذه الأجهزة من ناحية ومن ناحية أخرى على صنع زعامة شعبيه من خلال أحداث خارجية وقومية للحصول على الهتاف الدائم للجماهير وفى ذات الوقت عجت السجون والمعتقلات بالضحايا وهو مجال ليس لى هنا أن أخوض فيه فقد تعرضت له كتب ودراسات كثيره وهو أمر يخرج عن إطار بحثنا وإنما نركز على حقيقة وحيدة أكيدة لهذا الأسلوب المشار اليه وهو ما أدت اليه سياسة المعتقلات فى قتل تدريجى فى روح المقاومة الفردية للمصريين فكانت شهادة ضياع الهوية السياسية المصرية . .

وبضياع الهوية السياسية المصرية منذ ذلك الوقت لم يعد هناك حاجز لما حدث من إستغلال للسلطة وتجاوز لحدودها الى حد اللامعقول ومن خلال اللعب بفكر وعقول الجماهير من خلال تغييرات مصطنعة ومفتعلة ومسميات جديدة للطبقات الإجتماعية من عمال وفلاحين ومن خلال ميثاق وطنى كان حرفة للبعض يقاس ولاء الفرد بحفظ نصوصه ولتتحول اللعبة من مسمى الإتحاد القومى الى مسمى الإتحاد الإشتراكى . .

ونتيجة لذلك حدث إنفصام للشخصية المصرية بعد قتل الهوية السياسية فالتصفيق حاد جدا والخطب رنانة جدا والشعارات عالية جدا والجميع يتبارى فى المنظمات الشبابية لحفظ نصوص الميثاق الوطنى . . وإكتملت الصورة بالتنظيمات الداخلية لهذة الأجهزة يتجسس كل منها على الآخر لحساب الحاكم . .

ومع هذه الحقائق وبدءا من هذه الحقبة بدأت أولى معاول هدم الأخلاقيات و قبر الذات المصرية داخل نفوس المصريين وأسفرت بلا شك عن خزى عام ١٩٦٧ الذى أصاب قيادة حركة ٢٣ يوليو فما كان هذا الخزى إلا محصلة لدكتاتورية فردية متسلطة تحافظ على كرسى السلطة بأقسى أساليب السيطرة من خلال أمية عريضة وإنفصام فى شخصية الجماهير فلأول مرة وخلاف كل تصور تهتف الجماهير العريضة مسلوبة الإرادة مطالبة ببقاء المسئول الأول عن الهزيمة وهو أمر كان يعكس فى رأيى الشخصى شيزوفرانيا الشخصية المصرية ذلك الوقت التى خرجت تولول من أجل التمسك ببقاء صانع الهزيمة ومن الحفاظ على إستمرارية كرسى الديكتاتور .

لقد عجبت أشد العجب ولقد حاولت جهدى أن أبحث في ظاهرة خروج الجماهير المصرية للتمسك ببقاء صانع الهزيمة ولم أجد نموذجا مشابها فى تاريخ الشعوب الأخرى وإن كنت قد وجدت فى تاريخنا المصرى القديم شكلا قريبا من خداع نكسة ١٩٦٧ ومابعدها حتى أننى ظننت أن هذا السلوك هو جزء من النسيج السيكولوجى لنا . .

نعم لقد وجدت نفسى السلوك فى التاريخ القديم مع كليوباترا وهزيمتها النكراء التى تحولت باللامعقولية الى نصر ساحق لكليوباترا رغم إندحارها بلا حدود حتى أن شاعرنا العظيم أحمد شوقى يقدم لنا صورة عظيمة تصف لنا كيف يتصرف المضللين فى شعبنا الساذج البرئ .

إقرأ معى أحمد شوقى فى مسرحيته الشعرية الرائعة مصرع كليوباترا . . يقول شوقى . .

حيث كان العامة من الشعب خارج القصر ينشدون :

يومنـا فى أكتيومـا	ذكره فى الأرض سار
إسـألوا أسطول روما	هل أذقناه الدمـار
أحرز الأسطول نصرا	هز أعطاف الديـار
شرفا أسطول مصرا	حزت غايات الفخـار
صارت الإسكندرية	هى فى البحر المنـار
ولها تاج البريـة	ولها عرش البحـار

وبينما ينشد العامة هذا النشيد كان يجلس فى مكتبة قصر كليوباترا حابى وليسياس وديون فيقول حابى لديون :

إسمع الشعب (ديـون)	كيف يوحـون إليـه
ملأ الجـو هتـافا	بحياتى قاتـليـه
أثر البهتان فيـه	وإنطلى الزور عـليه
ياله من ببغـاء	عقـله فى أذنيـه

ويرد ديـون على حابى فيقـول

حابى سمعـت كما سمعت

وراعنى أن الرميـة تحتفـى بالرامـى

هتفوا بمن شـرب الصلا فى تاجهم

وأصار عرشهـم فراش غـرام

ومشى على تاريخهم مستهـزئا

ولو إستطاع مشى على الأهرام

فيقـول حـابى :

أتذكر ياديـون إذا إنطلقنا

الى الميناء نلتمس الهـواء

وكان البحر كالميت المسجـى

وكان الليل للمـيت الـرداء

فيقول ديـون

نعم وهناك آنسنـا سحـابا

وراء الليل جللت السمـاء

فقلت أنظر ديون ترى الجـوارى

يطأن المـاء همسا والفضـاء

وأقبلت البوارج بعـد حـين

سوائب لا دليل ولا حـداء

رجعـن رجوع قرصـان أصابـوا

من الغزو الهزيمـة والبـلاء

فلم نسمع لمـلاح هتافـا

يبشـر بالقدوم ولا نـداء

ولم نـر فوق سارية سراجـا

ولا من ثقب نافـذة ضيـاء

ويساله حـابى :

فمـاذا قـلت ؟

فيقول له ديـون :

قلـت ديـــون أنـــــى

أرى الأسطول بالويلات جــاء

دخول الظافرين يكون صبحـا

ولا تزجـى مواكبهم مســاء

فلما أصبح الصبح إنتهينــا

نرى الأسطول أزيـن ماتراءى

تبرجت البوارج بعـد عطــل

وهزت فى ذوائبهــا اللـــواء

وردد فى المدينة أن رومـــا

عفا أسطولها ومضـى هبــاء

فضـج الناس بالبشرى وكدوا

حناجرهم هتــافا أو دعـــاء

هـداك الله من شعب بـــرئ

يصرّفـه المضـلل كيف يشــاء

ثم يقول حابى وكأنه يخاطب الفاسقين والضائعـين صناع هزيمة ١٩٦٧ فيقول :

أترضى أن يكـون سرير مصــر

قوائمـه الدعـارة والبغـــاء ؟

أتهـدم أمـة لتشيـد فـــردا

على أنقاضهـا ؟ بئس البنــاء ؟

ثم تعال معى عزيزى القارئ لترى رغم هزيمة كليوباترا النكـراء تعال واسمع أمين مكتبة قصر كليوباترا المدعو زيتون يقول مستبشرا بملكة الهزيمة فى موقعة أكتيوم البحرية سنة ٣٠ قبل الميلاد .

قال هـذا المنافق :

سلام السموات فى مجـدها

على ربـة التـاج ذات الجـــلال

تمنيت رأسيـن لا واحـــــدا

إذا مست الأرض هـام الرجـال

أطاطـئ رأسـا لمجـد النبـوغ

وأخفض رأسا لمجـــد الرجــال

وبينما كانت كليوباترا مكتئبـة من آلام هزيمتهـا سمعت الجماهير خارج القصر تردد النشيد السالف ذكـره فتقول مضطربـة خائفـــة :

ليـت شعـــرى

ألخير تجمعـوا أم لشــر ؟

فتقول شرمـيون أحدى وصيفاتها كذبا ونفاقا وتضـليلا :

الجماهير يامليكـة بالشط يموجـون فى حبـور وبشـــر

سرهم مالقيت فى أكتيــــوم

من ظهـور على العـدو ونصــــــر

لا يقـــولون أو يعيـدون إلا

نبـأ بـات فى المدينـة يســـــــرى

وترد كليوباترا متعجبـة من تعلق الجماهير بالنصر الزائف الذى إدعاه أتباعها قالت كليوباترا :

يا لإفك الرجـال إذا ما أذاعـوا

كـذب ماروا صـراح لعمــــرى

أى نصر لقيت حـــتى أقامـــوا

ألسن الناس فى مديحى وشكـــرى

ظفـر فـى فـم الأمـانى حـــلو

ليت منه لنا قلامـة ظفـــــــــــر

وغـدا يعلم الحقيقـة قومـــــــى

ليس شـــئ على الشعـوب بســـــر

وهكذا تتأكد لنا حقيقة لافكاك منها وهى أن كرسى الديكتاتور دائما هو قائم على بناء هش لأنه لم تكـن أركانه سوى فراغ ووهم وانتظر لما حدث بعد وفاة عبد الناصر وماحدث بعد وفاته من تأكيد لعدم وجود قواعد راسخـه لشئ ما مما أفسح المجال خصبـا لإفـراز سموم أصحاب التطلعات والأجهـزة العديدة التى كانت متسترة وراء الستار مع إحتفاظها بشبق وشهـوة السلطة التى تربت وترعرت فى أحضان الجهـاز السياسى للإتحاد الإشتراكى لينتهى صراع الأبالسة بتولى قيادة جديدة ذات منهج خاص بها وهذا يؤكـد المعنى الذى أقصده وهو أن الفترة التى مرت بها مصر منذ ١٩٥٢وحتى وفاة عبد الناصر لم تفرز لمصر نظاما أو كيانا له هوية واضحة بل أفرزت لنا أشكالا هلامية من أصحاب المنافع فتحولت مصر مع القيادة الجديدة بعد وفاة عبد الناصر من أقصى اليمين الى أقصى اليسار بمجرد طرد خبراء الإتحاد السوفيتى من مصر عام ١٩٧٢ ثم حدث بعد ذلك صحـوة ليس لها سابقة فى تاريخ مصر الحديث هو حرب أكتوبر المجيدة والتى كان الفضل فيها كل الفضل للدماء المصرية الأصيـلة فى عروق جنود وضباط مصر الذين خاضوها .

كان يمكن أن تكون حرب أكتوبر وماتحقق خلالها من تطابق عقلى وفكـرى وروحى بين كل المصريين كان يمكن أن تكون بداية لإستعادة الهوية لكننا لم نستثمـر هذه الفرصة الذهبية . . لماذا ؟

لأن فكر القيادة بعد نصر ١٩٧٣ كان يقوم على تلوث الدم المفكـر بعقلية رأسمالية فتحت كل الأبواب من كل إتجاه لرؤوس الأموال والتى كانت فرصة ملائمـة لظهـور الطبقة الجديدة من الإنفتاحيين أو سماسرة التلاعب فى أقوات الشعب .

وهكذا تحول المسار الإجتماعى فى الداخل الى شكل طبقى جديد يعبر عنه بطبقة الإقطاعيين الجدد الذين بلغت أعدادهم وثرواتهم مئات الأضعاف لمن كانوا يسمونهم بالإقطاعيين قبل يوليو ١٩٥٢ والذين كان أحد الأهداف المعلنة لحركة ١٩٥٢ هو القضاء على هؤلاء الإقطاعيين أو القضـاء على مجتمع النصف فى المائة ليتحول الى مجتمع العشرة فى المائة أكثر أو أقل لا أعلم ولكنه من المؤكد أن عدد الإقطاعيين بلغة ماقبل ١٩٥٢ قد زاد

بعدها الى مئات الأضعاف من المليونيرات والبليونيرات . .

ومع مزيد من السخط الإجتماعى حدثت أول حركة شعبية مصرية تعبر عن التذمر والسخط فى ١٨ ، ١٩ يناير ١٩٧٧ أطلق عليها أنور السادات (إنتفاضة الحرامية) وإن كنت أراها إنتفاضة على الحرامية وعلى إرتفاع الأسعار و إنحطاط الخدمات وسيادة فلسفة التسيب والمحسوبية الى أن لقى السادات مصرعه فى ٦ أكتوبر ليتولى الرئيس حسنى مبارك المسئولية وليرث هذه التركة المجنونة . .

لماذا أقول حسنى مبارك ورث تركة مجنونة ؟

لأنه مطلوب من مبارك أن يصحح مسارات خاطئة منذ بدايتها . . لأنه مطلوب منه أن يبدأ أبنية كثيرة من جديد . .

ولأن أخطر مايواجهه هو بناء الهوية السياسية المصرية من جديد .. لقد تركت حركة ٢٣ يوليو شللية خطيرة وهدامة داخل الجدار المصرى تولد عنها ماسمى بمراكز القوى التى سمعنا عنها ومازلنا نسمع . .

ولعل هزيمة ١٩٦٧ كما ذكرت كانت أول سلبيات ونتائج الشللية والصراعات التى إنتهت بوقوع الفكر المصرى تحت سيطرة القبضة المحرومة التى ولدت وترعرعت فى مدرسة الأمية السياسية النفعية وهى الإتحاد الإستراكى . .

لقد تسبب الإتحاد الإستراكى فى حال السلبية المؤلمة للشعب المصرى وهى سلبية تمخض عنها إفراز سموم مرعبة تحت مسميات جديدة لتلامذة الإتحاد الإشتراكى وصناع الشعارات والمتلونين مع كل العهود فكان أخطر شعار قضى على الإيجابية تماما وتحول بالشعب الى المقاومة السلبية المطلقة هو شعار سيادة القانون الذى جاء قولا بلا فعل وبلا تطبيق لأن القانون لم يكن أبدا الفيصل حيث تحكم نظام الحكم الفردى الشمولى فى كل شئ لتكون النتيجة الإليمة هى فقدان ثقة الإنسان فى ذاته لعدم إحساسة بالأمان وإبدء إحساسه بالضياع لقبر قدراته حيث أصبح إختيار القيادات من بين فريق الحزام النفعى الدموى الذى تربى فى معسكرات حلوان حيث خلقت ماسمى بالكوادر السياسية التى توغل الكثير من خريجيها فى مواقع فى مصر اليوم وهم أخطر من يجب الإنتباه لهم والقضاء عليهم فى مرحلة البناء الجديدة لمصر فهم كالأفاعى التى تنتظر أى فرصة للإنقضاض على موقع للإنتفاع . .

لذلك يصبح حتميا في مرحلة البناء القادمة ومن أجل أن نستعيد الهوية السياسية أن نقضى على آثار إفرازات حركة ٢٣ يوليو وآثارها في مصادرة الحريات وعدم إحساس الناس بالأمان من خلال ماحدث في السجون والمعتقلات والتى تركت آثارها حتى الآن على الأبصار وكأنها غشاوة مؤلة صنعها جيل الجهلاء من خريجى مدارس الإتحاد الإشتراكى والإتحاد القومى والذين قادوا دائما حركات تزييف الإنتخابات في مصر ومن خلال الإختيار السئ للقيادات من بين هؤلاء المنتفعين من تجـار شعارات الإتحاد الإشتراكى وما الكثير منهم إلا إمعات وفضوليين وجهلة ومدعى علم . .

كما أنه يصبح حتميا أيضا إلغاء القوانين التى تم تفصيلها لتوائم ظروف معينه ولتطابق الشعارات الجوفاء مثل قانون العيب وقانون الأحزاب وقانون المدعى الإشتراكى . .

إن مهمـة مبارك اليوم فى رأيي مهمة ضخمة وثقيلة من أجل القضـاء على السلبية التى أصابت الشخصية المصرية والتى ستعـود بإذن الله مع عودة الهوية السياسية . .

أى أن العبء الحقيقى من أجل عودة الهوية السياسية المصرية هو أن نمحـو آثار العقيدة التى إعتنقها قادة حركة ٢٣ يوليو وتركت آثارها جـلية على الشخصية المصرية فقد إعتنقـوا عقيدة وفكـر فرعـون فيما مضى وإنطبق عليهم قول الله عز وجـل :

" إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفـة منهـم يذبـح أبناءهم ويستحى نساءهم انه كـان من المفسديـن ونريد أن نمن على الذين إستضعفـوا فـى الأرض ونجعلهم ائمـة ونجعلهم الوارثين "

وقال سبحانه وتعالى :

" ونادى فرعون فى قومـه ياقوم أليس لى ملك مصـر وهـذه الأنهـار تجـرى من تحتى أفلا تبصـرون أم أنا خير من هذا الذى هو مهيـن ولايكاد يبين فلولا ألقى عليه إسورة من ذهـب أو جـاء معه الملائكـة مقترنين

فاستخف قومه فاطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين فلما آسفونا إنتقمنا منهم فاغرقناهم اجمعين فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين " . صدق الله العظيم

وأنه لمن الضرورى فى المرحلة التى نسعى فيها لإستعادة الهوية السياسية أن نقضى على رجال الفرعون الذين تسللوا الى مواقع المسئولية للإنتفاع بعرق ودماء الشعب فهم بحق كانوا شر بطانة سوء ولاسبيل لإستعادة الهوية السياسية إلا بالقضاء عليها وتطهير كل المواقع منها . .

ويجب ألا ننسى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم :

" مابعث الله من نبى أو إستخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تامره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تامره بالشر وتحضه عليه فالمعصوم من عصم الله تعالى "

إن بطانة السوء فى مجتمعنا اليوم ستحارب بكل عنف إستعادة الهوية السياسية كانها بطانة تزين الشر للحاكم وتحثه عليه من خلال إفتعال الأحداث أو إختلاق المعلومات حرصا منها على مواقعها فى السلطة وقد تزين للحاكم كل أعماله فيرى فى نفسه قدرات خارقة ليست لديه وحكمه غير عادية قد تكون غير موجودة لينقلب المجتمع بالتبعيه الى جانبين أولهما الحاكم وبطانته وتابعيه (لاحظ هنا أننا نقصد بالحاكم كل صاحب سلطة) والمستفيدين منه وجانب آخر هو المحكومين الذين لاحول لهم ولاقوة طالما هم بلا هوية وتصبح وسيلتهم الوحيدة فى الدفاع أو الإعتراض هى السلبية المطلقة ونكاتا يضحكون بها على أحوالهم ولاحول ولاقوة إلا بالله . .

وليس من سبيل أمام كل صاحب سلطة اليوم للتخلص من بطانة السوء سوى إستيعاب للمبادئ التى وضعها الأنبياء والقادة العظام السابقين فالسلطة هى إحدى نعم الله على البعض من عباده وهى مسئولية يسأل عنها يوم القيامة لذلك فهى مسئولية خطيرة بدليل قول الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم :

" عدل السلطان يوما واحدا احب الى الله من عبادة سبعين سنه ".

وقال عليه الصلاة والسلام :

" إذا كان يوم القيامة لايبقى ظل ولاملجا إلاظل الله ولايستظل بظله إلا سبعة أناس : سلطان عادل فى رعيته وشاب نشا فى عبادة الله ورجل يكون فى السوق وقلبه فى المسجد ورجلان تحابا فى الله ورجل ذكر الله فى خلوته فاذرى دمعه من مقلته ورجل دعته إمراه ذات حسن وجمال ومال الى نفسها فقال إنى اخاف الله ورجلا يتصدق سرا بيمينه ولم تشعر بها شماله "

وقال عليه الصلاة والسلام :

" احب الناس الى الله واقربهم إليه السلطان العادل وابغضهم اليه وابعدهم منه السلطان الجائر "

وقال عليه الصلاة والسلام :

" والذى نفس محمد بيده إنه ليرفع للسلطان العادل الى السماء من العمل مثل عمل جملة الرعية وكل صلاة يصليها تعدل سبعين الف صلاة "

وقال صلى الله عليه وسلم :

" ثلاثة لاينظر الله إليهم : سلطان جائر كاذب وشيخ زان وفقير متكبر "

وقال صلى الله عليه وسلم :

" مامن عبد ولاه الله امر رعيته فغشيهم ولم ينصح لهم ولم يشفق عليهم إلا حرم الله عليه الجنه "

وقال أيضا صلوات الله وسلامه عليه :

" خمسة قد غضب الله عليهم إن شاء امضى غضبه ومقرهم النار . . امير قوم يطيعونه باخذ حقهم ولاينصفهم من نفسه ولايرفع الظلم عنهم . . ورئيس قوم يطيعونه ولايساوى بين القوى والضعيف ويحكم بالميل والمحاباه . . ورجل لايامر اهله واولاده بطاعة الله ولايعلمهم امور الدين ولايبالى من اين اطعمهم . . ورجل إستاجر اجير فتمم عمله ومنعه اجرته . . ورجل ظلم زوجته فى صداقها . .

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه :

" ويل لقاضى الأرض من قاضى السماء حين يلقاه الا من عدل وقضى بالحق ولم يحكم بالهوى ولم يمل مع اقاربه ولم يبدل حكما لخوف او لطمع لكن يجعل كتاب الله مرآته ونصب عينيه ويحكم بما فيه " .

تلك هى أصول وقواعد تركها لنا السابقون حكاما ومحكومين لابد أن نتمسك بها وندافع عنها من أجل أن نستعيد هويتنا السياسية المفقودة .

- ٣ -

سبل إستعادة الهوية السياسية

وإذا كنت قد أوضحت من قبل أن الحصول على الهوية السياسية المفقودة يعتمد على تمشيط السلوك الإنسانى من خلال منظورنا الإسلامى من أجل تحقيق ذاتية الإنسان فلولا ما أصاب الإنسان من أمراض سلوكية أدت إلى توغل الفساد فى داخل النفوس ماوصل حالنا الى ماهو عليه من أزمات وهى قضية لايجب أن نلقى فيها بالمسئولية على الحاكم وحده فهو لايملك عصا سحريه أو له قدره على تحقيق معجزات بإرادته المنفردة ولذلك فإذا لم يضع الجميع أياديهم مترابطة حكاما أو محكومين فى كل المواقع من أجل تمشيط السلوك للوصول به الى نفحات الخير والأمل فلا أمل فى إصلاح أو صلاح . .

ولتصدقنى عزيزى القارئ أن العلوم المادية وإن كانت تستطيع تشخيص الأمور تشخيصا موضوعيا فإن الكثيرين يعتقدون أن الجوانب الروحية التى تصيب ذاتية الإنسان أمور بعيدة عن مستوى التشخيص وهو أمر قد يكون جائزا فى عالم ماديات الغرب والشرق لكنه غير حقيقى فى عالم الإسلام وبمنظور الإسلام الذى أرسى من القواعد والأسس مايضئ الرؤية ويضمد الجراح لذلك فمن الممكن أن أتصور روشتة إجتماعية لعلاج أمراض السلوك يمكن لكل فرد منا أن يراجعها فقد يجد فيها تشخيصا لمرضه ومادام قد أمكن لكل منا تشخيص الداء فإن الدواء يصبح أمرا ميسرا بإذن الله وعونه . .

لنجعل أول مانوقع عليه الكشف السلوكى هو القلب . . ألستم معى أن أنساننا المعاصر نسى أو أعمته الدنيا عن حقيقة أن الله سبحانه وتعالى الذى زوده بالجمال والكمال والفخر ماخلقه إلا لعبادته والتقرب اليه . .

فالإنسان إذا عرف ربه فهو قد عرف نفسه لأنه بغير الله يكون الإنسان أجهل الخلق لأن الجهل بالله جهل بالقلب وجهل بالنفس . .

يقول الله سبحانه وتعالـى :

" نسـوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم

الفاسقـون "

وبهذا تكون فاتحة طرق العلاج هى العودة الى حسن الخلق التى أرسى الإسلام أسسها فقد قال الله سبحانه وتعالى لنبيه المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم :

" وانـك لعلى خلق عظـيم "

وقال صلوات الله وسلامه عليه :

" إنما بعثت لأتمم مكـارم الأخـلاق "

وقال صلى الله عليه وسلم :

" أول مايوضع فى الميزان حسن الخلق والسخـاء "

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر دائما من الدعاء بقـوله :

" اللهم إنى اسالك الصحة والعافية وحسن الخلق "

ولذلك فان حسن الخلق يعني تهذب الانسان ويعنى قوة العلم لان الانسان يدرك بها الفرق بين الصدق والكذب فى الاقوال وبين الحق والباطل فى الاعتقادات والجميل والقبيح ويعنى ايضا قوة الغضب لان عظمة قوة الغضب فى ان يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة وتعنى كذلك قوة الشهوة لان الانسان يدرك ان الشهوة يجب ان تكون تحت اشارة العقل والحكمة وتعنى كذلك قوة العدل لان قوة العدل تكمن فى ضبط الشهوة والغضب تحت راية العقل فيتحقق الاعتدال وهو اول مظاهر صحة النفس وبالتالى هو اول العلامات المضيئة على طريق الظلام الذى يعيش فيه عالم اليوم .

فاذا امكن لنا علاج ماصاب القلب روحانيا امكن ان نتغلب على مصيبة الناس فى هذا الزمان حيث انكبوا على اعظم المهلكات وهى شهوة البطن وشهوة النساء فاذا تملكت الانسان منا هاتين الشهوتين اندفع بكل قوة نحو الرغبة الجارفة فى جمع المال والبحث عن مقعد السلطة كانهما وسيلتى التوسع فى اشباع المعدة والنساء .

ولاأجد اعظم مما قاله الرسول الكريم لكبح جماح هذه الشهوات إذ قال صلى الله عليه وسلم :

" البسوا وكلوا واشربوا فى انصاف البطون

فانه جزء من النبوه "

وقال الحسن ان النبى صلى الله عليه وسلم قال :

" الفكر نصف العباده وقلة الطعام هى العباده "

وقال صلى الله عليه وسلم :

" لاتميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فان

القلب كالزرع يموت اذا كثر عليه الماء "

وقال صلى الله عليه وسلم :

" ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه حسب ابن

آدم لقيمات يقمن صلبه وان كان لابد فاعلا

فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه "

وأما عن شهوة النساء فلا علاج لها الا بمقارنة اللذة المحسوسة للوقاع واللذة الروحيه بالترفع عنها وكبح جماح النفس طمعا فى لذات الدار الاخرة وفى هذا الصدد يقول سعيد بن المسيب :

" ما بعث الله نبيا فيما خلا إلا ولم ييأس ابليس

ان يهلكه بالنساء ولاشىء اخوف عندى منهن وما

بالمدينة بيت ادخله الا بيتى وبيت ابنتى اغتسل

فيه يوم الجمعة ثم اروح "

ويقول البعض :

" ان الشيطان يقول للمرأة انت نصف جندى وانت

سهمى الذى ارمى به فلا اخطىء وانت موضع

سرى وانت رسولى فى حاجتى "

وهكذا نجح الشيطان فى عالمنا المعاصر فى السيطرة على الكثيرين خاصة من اصحاب المال والجاه فأصبحت حياتهم افراط فى كل شىء وهو افراط ادى الى قهر عقولهم

فاندفعوا يبذرون الشر فى كل مكان من المجتمع ..

ثم نأتى أروشته لألسنتنا اليوم واللسان من نعم الله العظيمة على الانسان فأنه رغم صغره فان جرمه عظيم إذ لايستبين بين الكفر والايمان الا بشهادة اللسان ويصبح اللسان اما قائل خير او قائل شر ولا ينجو من شر اللسان الامن قيده بلجام الشرع فلا يطلقه الانسان الا فيما ينفع فى الدنيا والاخره ..

قال الحسن ان النبى صلى الله عليه وسلم قال :

" رحم الله عبدا تكلم فغنم أو سكت فسلم "

وقال صلى الله عليه وسلم :

" إخزن لسانك إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان "

وقال صلى الله عليه وسلم :

" إن الله عند لسان كل قائل فليتق الله امرؤ علم مايقول "

وقال صلى الله عليه وسلم :

" إذا رايتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة " .

وقال صلى الله عليه وسلم :

" من كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ومن كثرت ذنوبه كانت النار اولى به "

فهل من ممسك لألسنتنا اليوم عن الخوض فى كل شئ نفهمه أو لا نفهمه هل نسينا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول لابوذر :

" الا اعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل فى الميزان قلت بلى يارسول الله قال : الصمت

وحسن الخلق وترك ما لايعنيــك "

فهل من وسيلة أيها الناس لكبح جماح ألسنتنـا عن الخوض فى الباطل الذى تقام الندوات والمآدب من أجله هل نسينا أن بلال بن الحرث قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله مايظـن ان تبلغ به مابلغت فيكتب الله عليها بها سخطه الى يوم القيامـة "

ويقول صلى الله عليه وسلم :

" أعظم الناس خطايا يوم القيامة اكثرهم خوضا فى الباطـل "

ويروى أن أبا حنيفة رحمــه الله قال لداود الطائى :

" لم آثـرت الإنـزواء قال لأجاهد نفسى بتـرك الجدال فقـال احضـر المجالـس واستمع لما يقال ولاتتكلم قال ففعلت ذلك فمـا رايت مجاهدة اشدمنها وهو كما قال لأن من سمع الخطا من غيره وهو قادر على كشفـه تعسـر عليـه الصبر عند ذلك "

لذلك قال صلى الله عليه وسلم :

" من ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتا فى اعلى الجنة "

ويبقى بعد ذلك أن نوضح روشتة السب وبذاءة اللسان التى أصابت الألسنــة وهما صفتان متلازمتان مع الخبثاء وأهل اللؤم إذ يقول صلى الله عليه وسلم :

" إياكم والفحش فإن الله تعالى لايحب الفحش ولا التفحش "

وقال صلى الله عليه وسلم :

" ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذئ "

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام عن المنافقين :

" ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم انه مسلم إذا حدث كذب وإذا وعد اخلف وإذا اؤتمن خان "

وقال صلى الله عليه وسلم :

" اربع من كن فيه كان منافقا ومن كانت فيه خلةمنهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإن وعد اخلف وإن عاهد غدر وإذا خاصم فجر "

ثم نأتى بالروشتة الخاصة بمرض أصحاب الصولجان فى مصر وهى الكبر على الناس فكثير من أصحاب السلطة اليوم معجبون جدا بأنفسهم متناسين قدرة العزيز الجبار متناسين أن الكبر والإعجاب بالنفس داءان مهلكان وقد ذم الله الكبر فى مواضع كثيرة وذم كل جبار متكبر . .

قال سبحانه وتعالى :

" ساصرف عن اياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق "

وقال سبحانه وتعالى :

" لقد إستكبروا فى انفسهم وعتوا عتوا كبيرا "

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إن احبكم إلينا واقربكم منا فى الاخرة احاسنكم اخلاقا وابعدكم منا الثرثارون المتشدقون المتفيهقون قالوا يارسول الله قد

علمنا الثوريون والمتشدقون فما المتفيهقون ؟
قال : المتكبرون . . "

وعلى ضوء ماذكرته من مقومات وضعها الإسلام كفيلة تماما بالحفاظ على ذاتية وهوية الإنسان فإنه لابد أن أعترف عزيزى القارئ إننى لا أعفيك ولا أعفى نفسى من المسئولية عما جرى لمصرنا الغالية من تخلف عن ركب التقدم ولايجب ابدا ان نسمح جميعا بأستمرار هذا الحال فلم يعد هناك احتمال للمكابره والمتاجرة بالشعارات والمزايدة على مصالح الأمه وليس هناك من سبيل لذلك الا بالمواجهة ...

ولكن.......

مع من تكون المواجهة ؟

مع رئيس الدوله اى الحاكم ؟

ام مع أجهزة النظام ؟

أنا لا اعتقد ان المنطق يتفق مع دعاة الهجوم اللا محدود على الدولة ممثلة فى جهاز الحكم فليس الحاكم وحده ولا أجهزته مسئولين وحدهم لكنها مسئولية مشتركة بين الجميع حكاما ومحكومين لذا فلا داعى للمتاجره بالاقوال والتناقض مع انفسنا بالافعال وكفانا إسلوب اخفاء الرؤوس كالنعام ولتكن مواجهه صادقة مع النفس أولا

نعم........

ليتظر كل منا انا وانت كل فى مرآته فان كان لدينا الشجاعه على هذه المواجهة فنحن بأذن الله نكون قد خطونا على الطريق الصحيح لتحديد معالم الطريق لمصرنا الحبيبة ...

ولتصدقننى عزيزى القارىء اننى عمدت الى الاشارة الى الامراض السلوكية بالروشته لانها بالفعل امراض قد اصابتنا فى السلوك فقهرتنا أى أننا قد قهرنا أنفسنا بالكذب والمغالطة فاذا ما واجهنا أنفسنا ونظرنا فى مرآتنا وحدد كل منا الجروح التى بجسده امكن ان نصل الى العلاج بأذن الله ويمكن لنا فى خلال مدة قريبة ان نستعيد الهوية السياسية المفقوده واول ما اعرضه من مقترحات بهذا الخصوص هو ان يكون حديثنا قائما على الصراحة التامة والانتماء المخلص لمصر وعندما اقدم تصورى اقول ان مسئولية تنفيذ اى سياسات للاصلاح تعتمد دائما على القائمين على امور الادارة فى المجالات المختلفة فهم

القيادات والقدوة لذلك فهم عنصر اساسى فى النجاح او عدمه ويرجع فشل هؤلاء اليوم الى اعتناقهم فلسفة تأليه الكرسى فهو اسوأ ما اصاب المسئولين بانعدام للرؤية وانفصام فى الشخصية وتهته فى اللسان وتصبب للعرق امام رئاساتهم ولماذا يفترضون ان الرئيس هو دائما على صواب ولذلك فلا مراد لرؤيته او قوله ...

صدقونى ان هذه اكبر كارثة تواجه الاداره اليوم ....

وصدقونى ان فرعون الاله مات منذ آلاف السنين واذا كان الجميع ينظر للاهرامات فى مصر كرمز للحضارة فأننى انظر اليها من زاوية إخرى هى نظرية السخرة فهى رمز لسخرة المصريين القدماء فى بنائها تلبية لرغبة الفرعون الاله ......

وكما أن لقناة السويس جانبها المضىء الا انها من منظور آخر كانت ايضا رمز للسخرة لاجدادنا المصريين ....

لقد صنعنا الالهة بأيدينا ثم سجدنا لهم ثم عاوناهم فى امساك السوط لجلد ظهورنا فاذا ما وقع السوط من ايديهم لم يتم الثأر لكرامتنا بالتقاط السوط وضرب الظالم بل تقدمنا للجلاد مره أخرى بالسوط ليضربنا من جديد امعانا فى التمسك بالذلة والاستعباد ......

يجب ان تكون لدى هذه الفئة الشجاعة لاظهار الرؤية الحقيقية والتخلص من الحجة النسائية القذرة وهى تقبل الذلة من اجل تربية الابناء أى ابناء هؤلاء الذين تقبلون ان يتم تربيتهم بعرف المذلة والمهانة .... ان المشكلة فى جذورها كما ذكرت مشكلة اخلاقية فمالم يؤمن الانسان أن روحه ورزقه ملك لخالقه فلا أمل فى هذا الانسان لانه سيتفرغ للحاكم الاله ليصنع له رزقه وهذا والله سبة فى جبين هؤلاء الضائعين .....

ان الشعب المصرى فى ظروفه الراهنة فى حاجة الى قيادة قدوة لذلك فمهما كان رئيس الجمهورية نقيا وشريفا فانه لايستطيع ان يفعل شيئا وحده بدون معاونين على ذات المستوى من الشرف والنظافة لان الصف الثانى التالى لرئيس الجمهورية اذا اصابه الفساد بالتقيح واصبحت نزعته فردية مطلقة ولاهم له سوى الحصول على اكبر قدر من الثروة من خلال المناصب كذلك ولما كانت المناصب غير مضمونة فانهم يطبقون نظام الوالى والمماليك ايام العثمانين اذ ياتى الوالى فيكون كل همه أن يجبى الضرائب العشوائية لتحقيق اكبر نفع قبل ان تنزع منه الولاية لذلك فأن المطلوب فى المرحله القادمة إختيار صف ثانى جديد تماما

وتطهير إجهزة الدولة من زبانية الاتحاد الاشتراكى وكفاهم تخريبا فى مصر .....

مطلوب خطوة جريئة من رئيس الدولة ان يبدأ ببذر بذور الهوية السياسية المفقودة من خلال القضاء على كل مظاهر الترف لكل المسئولين بالدولة بدءا بنفسه وكم اتمنى ان ارى رئيس الجمهورية فى سيارة مصرية الصنع مائة فى المائة وكذا كل المسئولين وكم اتمنى انتخابات حرة صادقة لافراز مجلس شعب يتم انتخابه بحرية مطلقة وبدون قيود ولايسمح بالترشيح فيه لتجار الاتحاد القومى والاتحاد الاشتراكى ومنظمات الشباب .....

وكم اتمنى ان يتم تعديل الدستور بحيث لايسمح لرئيس الجمهورية بتعيين أى اعضاء فى مجلس الشعب المنتخب بارادة حرة وان يكون لهذا المجلس حق عزل رئيس الجمهورية اذا خرج عن حدود سلطاته وان لايتم تعيين الوزراء الا بعد موافقة مجلس الشعب وان يستقل القضاء استقلالا حقا وان تلغى البعثات الدبلوماسية فى البلاد الخارجية لسنوات الاصلاح القادمة وكم اتمنى ان نزرع قمحنا كله فى مصر فلا تخضع لاحد من خارج مصر ....

كم اتمنى ان يعلن الرئيس منهاجا للمرحلة القادمة يقوم على اسس كنا نتمنى ان تقوم عليها حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فما قامت عليها ولاحققتها بل وهدمت بقايا ماكان موجودا منها وهذه الاسس هى اساس صنع الهوية السياسية فى رايي وهى :-

١ - الحياة الاسلامية هى المنهج فى الفكر والتطبيق بما يضمن تحقيق الخير للجميع ومحاسبة المخطىء فى حق الجماعة .

يقول الله سبحانه وتعالى :-

" ولتكن منكم أمه يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون "

وكلنا يذكر ان التاريخ الاسلامى العريق قدم لنا نموذجا حيا لذلك هو جهاز المحتسب وولاية المظالم فكان جهاز المحتسب يتولى الدعوة لعمل الخير واصلاح مابين الناس على اساس نظام

يشبه المجالس العرفية .

اما جهاز والى المظالم فكان يتولى المراقبة والتفتيش على عمال الدولة ويمكن ان اشبهه فى ايامنا بجهاز الرقابة الادارية الذى نرى ان يتم تدعيمه بكل قوة فى المرحلة القادمة بالذات من اجل كشف جوانب الاعوجاج خاصة فى سلوك واسلوب الادارة فى اجهزة الدولة المختلفة خاصة واننا نرى ان الادارة يقع عليها فى المرحلة القادمة عبئا ضخما فى الخروج بمصر من ازمتها .

وهذه الدعوة الى حياة منهجها الاساسى الخير والمعروف ليست جوازية أو تفضل من الحاكم او المحكوميين بل هى فرض اجبارى من الله سبحانه وتعالى اذ يقول عز من قائل :

" الذين ان مكناهم فى الارض اقاموا الصلاة واتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور "

ويؤكد ذلك ايضا قول الله سبحانه وتعالى :

" الذين يتبعون الرسول النبى الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يامرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى انزل معه اولئك هم المفلحون "

واذا كنت قد ذكرت ان ذلك المبدأ مفروض على الحاكم وعلى المحكوم فان ذلك حقيقة جلية فى قوله تعالى :-

" والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض
يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون
الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله
اولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم "

ويقول عز وجل :

" التائبون العابدون الحامدون السائحون
الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف
والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله
وبشر المؤمنين "

٢ - المنهج او المبدأ الثانى الذى نرى ان يتضمنه برنامج الرئيس فى المرحلة القادمة هو حريه تبادل الرأى والمشورة بين الحاكم والمحكومين طالما فى اطار مبادىء الشريعة الاسلامية.

يؤكد ذلك قول الله سبحانه وتعالى :

" وأمرهم شورى بينهم "

وقوله تعالى :

" والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة
وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون "

٣ - اما المبدأ الثالث الذى نرى ان يتضمنه برنامج الرئيس فى المرحلة القادمة فهو التروى فى اصدار القرار والابتعاد تماما عن الدكتاتورية فى الرأى ....

يقول الله سبحانه وتعالى :

" فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا
غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم

واستغفر لهم وشاورهم فى الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين "

٤ – اما المبدأ الرابع الذى نرى ان يتضمنه برنامج الرئيس فى المرحلة القادمة فهو حق المحكومين فى محاسبته ....

بمعنى ان لاتترك الامور على اطلاقها ولا افهم من اين يأتى حق الحاكم فى ايامنا هذه فى اصدار قوانين دون الرجوع الى الشعب ممثلا فى ابنائه المختارين لتمثيله بمجلس الشعب فان جاز هذا مع حاكم عادل فهو غير جائز مع حاكم ديكتاتور وهنا آخذ مفهوم روسو فى علاقة الحاكم بالمحكومين فهو علاقة تعاقدية فالحاكم أجير عند المحكومين اذا خرج عن اطار الحفاظ على صالحهم كان لهم الغاء العقد وعزله .

وهذا المبدأ ليس اختراعا من عندى ونجده فى قول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

" من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان "

كما ان هذا المعنى اجده فى قول الله عز وجل :

" ان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم واذا اراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال "

والابتعاد عن الديكتاتورية بهذا المفهوم يعنى ضرورة عدم تكتل كل السلطات فى يد الحاكم لان ذلك يؤدى الى ضياع وهدر الحرية وهى اهم عناصر الهوية السياسية وفى قول الله تعالى :

" .... ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين "

فالتوازن بين السلطات هو اساس العدل واساس البعد عن الصراع الاجتماعى وان

يتحقق هذا بالطبع الا من خلال الحكم على اسس من العدالة الكاملة عملا بقول الله سبحانه وتعالى :

" واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل "

ولأهمية العدالة بين الناس يحذر الله سبحانه وتعالى من الظلم ومن الظالمين اذا يقول جل شأنه :

" ولاتحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار مهطعين مقنعى رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وافئدتهم هواء "

وقوله سبحانه وتعالى :

" ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم الى اجل مسمى فاذا اجلهم لا يستاخرون ساعة ولا يستقدمون "

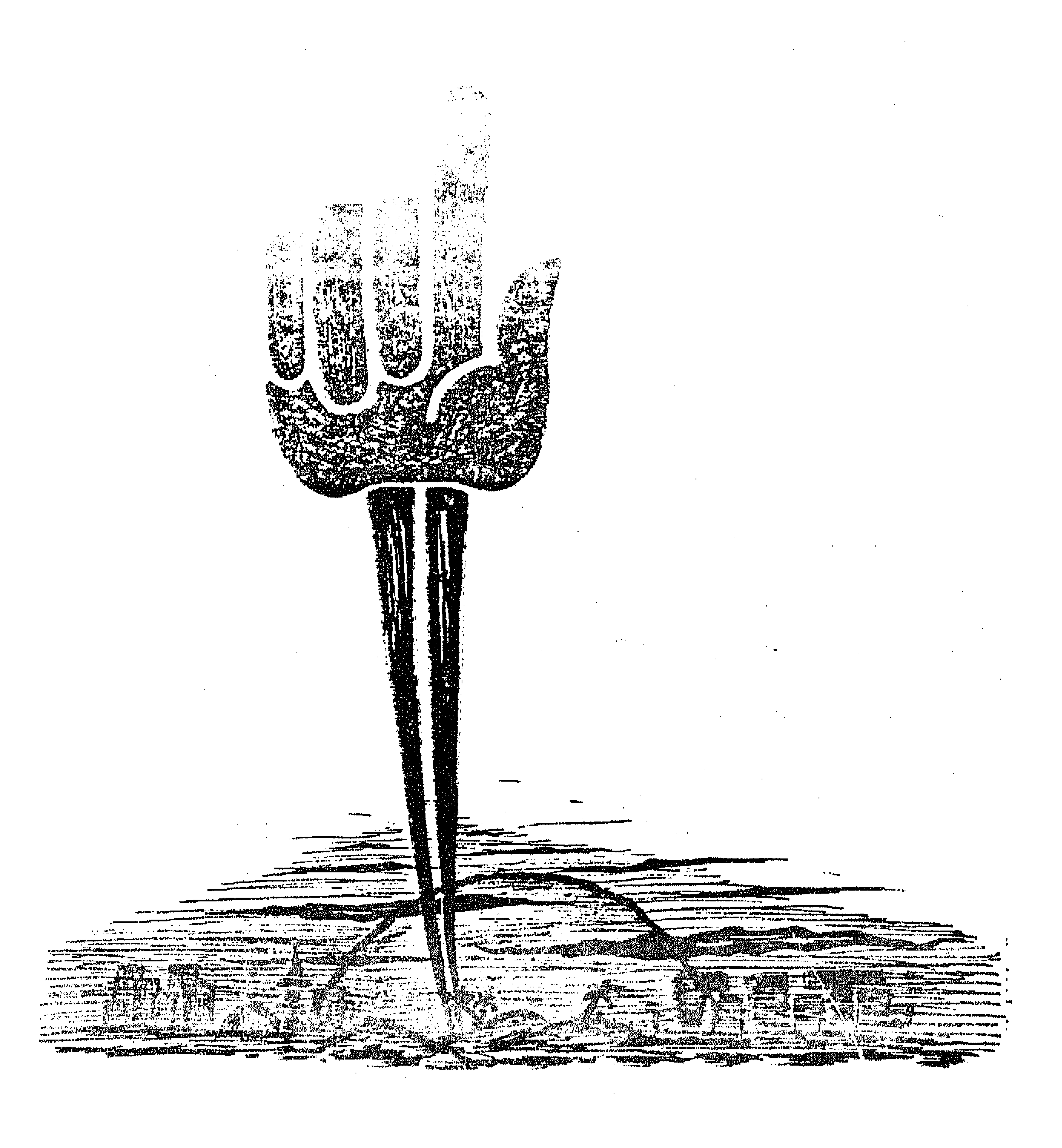
ويتضح ايضا انتقام الله من الظالمين فى قوله تعالى :

" وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وانشانا بعدها قوما آخرين فلما احسوا باسنا اذا هم منا يركضون لا تركضوا وارجعوا الى ما اترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسالون . قالوا ياويلنا انا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين "

تلك بإذن الله هى اسس ومقومات استعادة الهويه السياسية نرجو الله ان تكون فاتحة خير لنا جميعا بعونه تعالى .

الفصل الثانى

اقتصاد مصر وهويته المفقودة



اقتصاد مصر وهويته المفقودة

إن نجاح أوفشل اقتصاد ما يقوم على حقيقة أساسية وهى مدى نجاح هذا الاقتصاد فى تحقيق التوازن بين حاجات ابنائة الاساسية وحريته واعنى بحريته الا يكون هناك سيطرة خارجه عليه تجعله تابعا بشكل او بآخر مما يؤثر على ارادته السياسية والفكريه بل وعلى قدرته فى صنع القرار المتعلق بلقمة عيش أبنائه ....

ولعلى أعبر عن وجهة نظرى بصدق وبموضوعية حيث أرى ان مشكلة اقتصاديينا أنهم يعجزون عن تحقيق المواءمة بين المشكلة الاقتصادية كواقع هو نتاج منهج أو مناهج فكريه تختلف بالقطع عن واقعنا الذى يجب أن يسير فى اطار فكر اقتصادى اسلامى نابع من احكام الشريعة الاسلامية ....

وتقوم وجهة نظرى هذه على أنه لافاصل بين الدين والدنيا فى منهجنا الاسلامى لان هناك ترابطا عضويا بين الدين والدنيا يقوم على حقيقة أكيدة وهى ان الله سبحانه وتعالى خلق الجن والانس كما سبق ان ذكرنا من أجل عبادته ومن ثم فقد خلق الله الارض ليعيش عليها الانسان فى سلامة ويسر وسخر له ما فى السموات والارض نعما من الله على الانسان لا تحصى ولا تعد من أجل طاعته سبحانه جل شأنه .

لذلك فأن الحياة الدنيا تصبح وسيلة الى غاية أساسية فاذا صلحت الوسيلة صحت الغاية وتحقق الهدف المراد منها ...

وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى :

" وابتغ فيما اتاك الله الدار الآخرة ولا تنس
نصيبك من الدنيا " القصص : ٧٧

ولا أعنى بهذا الابتعاد عن أى افكار أونظريات مستوردة وانما أقول أن يكون الاساس هو فكر الاسلام النابع من واقعنا الاقتصادى الفعلى والمرتبط بفكرنا العقائدى ومنظورنا الاسلامى ....

وأقول للاقتصاديين فى بلادنا أن الاصل ان يكون فكرنا الاقتصادى نابع منا ومن واقعنا وليس فكرا مستوردا بالكامل نحاول ان نطبق احكامه ونظرياته على واقعنا الذى يختلف عنه تماما ....

ويرجع ذلك الى ان الفكر الاقتصادى المستورد هو فكر متجرد تماما من الصبغة الدنية ويقوم على فكر وفلسفة ماديه صرفة لذلك جاء هدف الاقتصاد بمفهومه المعاصر او قل المستورد هدفا يقوم على أن يكون إشباع حاجات الانسان المادية هو هدف الاقتصاد ......

أما هدف الاقتصاد فى الاسلام فانه لايمكن ان يقوم على أساس المادية المطلقة بل يقوم على منظور اسلامى يعتمد على أن الدين الاسلامى دين شامل وكامل فهو دين لايخلو من طرح للمشكلة الاقتصادية وابعادها وحلولها انما تبقى المشكلة فى مفهوم كثير من مفكرينا الاقتصادية وعدم قدرتهم على الربط بين الفكر الاسلامى وفكرهم الاقتصادى المستورد لذلك ارى انهم قد قبروا افكارهم فى حدود المعلومات التى تحجموا فى اطارها من خلال المدرسة الفكرية الاوربية او المستوردة .....

وحيث اننى فى هذا الكتاب لا أخوض فى دراسة تفصيلية عن طبيعة الإقتصاد الاسلامى الاننى وطالما ابحث فى الهوية الاقتصادية المصرية فلابد أن أمر مرور سريعا من خلال الاستعانة بدراسات من سبقونا فى هذا المجال وهم أساتذة أجلاء لكنهم قلة قليلة استطاعت بوعى وايمان ان تربط بين الفكر الاقتصادى المادى والمنظور الاسلامى ....

وارى ان نضع أمام أنظارنا مفاتيح الرؤية لبعض الافكار الاقتصادية من خلال منظور اسلامى وهى بالتحديد:

١ – ماهية المشكلة الاقتصادية فى الاسلام .

٢ – التنمية الاقتصادية فى الاسلام واسلوب تحقيقها .

٣ – التخطيط الاقتصادى ومفهومه فى الاسلام .

فاذا تفهمنا بوعى كامل هذه الجوانب امكن لنا جميعا ان ندرك بموضوعية الوضع الاقتصادى فى مصر حيث يتضح ابتعاده كل البعد عن الموضوعية وهو ما جعل منه حتى الان اقتصادا بلا هوية ....

ماهية المشكلة الاقتصادية فى الاسلام

ماذا جرى لانساننا المصرى اليوم فى مصرنا وفى البلاد الاسلامية الاخرى المشابهة لاحوالنا وظروفنا ؟

ما الذى اصابه فأنطفأت قدراته وامكانياته وفاعليته ؟

هو هو الانسان ذاته أم أن المسئول هم من قادوه نحو الضياع ؟

أعتقد ان المسئول عن فقدان الهوية الاقتصادية هم مستوردوا المناهج والافكار الاقتصادية المستوردة والبعيدة كل البعد عن حضارتنا وتاريخنا وادى ذلك الى اصابة الانسان المصرى بتمزقات نفسية ورؤية مهزوزة ادت الى عجز الانسان عن تحديد هويته من اجل هدف محدد يسعى اليه ....

وأدى ذلك أيضا إلى أن الإنسان المصرى أصبح فاقدا لملكات الإبداع يعيش فى دنيا لاتعترف سوى بأهل الخطوة لا بأهل الخبرة فكان هذا دافعا إلى إفراغ البلاد من عقولها المفكرة وأياديها المنتجة . .

وقد ساعد على ذلك النظم الأوتوقراطية التى تتحكم فى هذه البلاد كمصر وشبيهها فأصبحت تسير فى فلك ذلك الفكر الإستعمارى المتحكم الذى لايهمه سوى مزيد من تخلف المتخلفين ومزيد من الغنى للعالم الغنى وليظل العالم المتخلف بلا إستقرار أمنى أو مناخ للنمو العلمى و الفكرى أو الثقافى أو الديمقراطى اللهم إلا إذا كانت مجموعة من الشعارات والملصقات تقال فى المناسبات وهى قضية نجح الفكر الإستعمارى الغربى فى السيطرة على البلاد العربية والإسلامية فجعلها بالفعل مستعمرة لصالحه من خلال منظور الإستعمار الحديث الذى جعل التفكك فى هذه البلاد هو الأصل مما جعل تبعية هذه البلاد له أمر منطقى وطبيعى تفرضه حاجة هذه البلاد .

أليس من المهازل التى تعتبر سبة فى حق عقول مفكرينا وعلمائنا فى هذه البلاد بل وفى حق قادة العرب والمسلمين أن يكون حجم التبادل التجارى بين هذه الدول لايتجاوز عشرة فى المائة من إجمالى حجم تجارتها مع الغرب الذى يصل الى حوالى تسعين فى المائة . .

وأخيرا نجح الغرب فى تكميم أفواه مصر والعالم الإسلامى بالديون والفوائد الربوية المبالغ فيها ولذلك فإننى لا أصدق شعارات أو خطط التنمية فى هذه الدول المتخلفة لأنها تتناقض تماما مع واقع الحال فيها من مظاهر الأبهـه والبذخ الذى يتناقض مع حالها الإقتصادى . .

أتعرفون لماذا ؟ لأن هذه البلاد بعد لم تنتبـه أو تتحرر فى أفكارها من الفخ الذى نصبـه الغرب نحو ضرورة إستمرارية الإذلال والإخضـاع لهذه البلاد وتشجيعها على مزيد من مصادر جلب الديون من خلال إنفلات الحاجات التى يتم إستيرادها من الغرب بدءا من الطعام ونهاية بالسلاح . . لذلك فإنه لاسبيل الى حل المشكلة الإقتصادية اليوم سوى التحـرر من سطوة الغرب ولايجب أن تكون نظرتنا للمشكـلة الإقتصادية نظـرة محـدودة فى حدود نظريات إقتصادية على الورق بل يجب أن نرتبط بشكل واقعـى وجذرى مع جوانب المجتمع السياسية والثقافية والإجتماعية لذلك فإننى أدعو إلى وقفـة لحين إعادة البناء . .

نحن بحاجة الى وقفة جريئة نبتعد فيها عن إستيراد الأفكار والأشكال والنماذج الإقتصادية من الغرب لأنها تشوه المعالم الإقتصادية فى مصر وغيرها من البلدان المشابهه فلا يجب أبدا أن تعترف بفكر إقتصادى ونظريات إقتصادية ينقلها مفكرونا الإقتصاديون نقلا أعمى بل نقل جاهل متناسين أو عن جهل منهم أن هذه الأشكال والأفكار تناسب الواقع التاريخى للمجتمعات الغربية وحضارتها وثقافتها وظروفها الإجتماعية وهى جميعا تختلف عن كافة الظروف للمجتمعات العربية والإسلامية . .

لماذا ؟ لأن كل أمة لها خصوصياتها ونظرتها الى الكون والإنسان والحياة والنظر للمشكلة الإقتصادية يجب أن يكون نابعا من هذه الحقيقة لذلك فليكن دليلنا هو تجربـة اليابان والصين فإن نجاحهما إنما يقوم من الأساس على هذه الحقيقة . .

لقد نجحـوا فى صنع التقدم بعد أن إستفادوا من التراكم فى كم المعرفة العالميـة فى مجـالات التخطيط والتنمية فأخذوا منها مايتوافق مع ظروفهم الإجتماعية الخاصة فحافظوا على إنسانهم ولغتهم وعقيدتهم وثقافتهـم الذاتيه لذلك كان نجاحهم لأن التنمية بدأت لديهم من خلال أفكار تلائم واقعهم لذلك فإننا عندما نبدأ فلتكـن البداية بأنفسنا وواقعنا وعقيدتنا لأنها السبيل الوحيد الذى يمكن أن يضـع أقدامنا على أول الطريق الصحيح . .

فإذا بدأنا من خلال هذه الحقيقة كان لابد أن نرتبط بنظرة الإسلام والمعنى العظيم الذى نقدمه للعمـــل . .

فالعمل من وجهة النظر الإسلامية له تقدير خاص يصل به الى حد العباده التى يجزى عنها المسلم من خلال المنظور الروحى الذى يعتنقـه المسلمون وهنا نكون مع أول خلاف لنظرة العمل فى الإسلام عن مفهوم العمل فى الفكر الإقتصادى الغربى ففى الأخير كاى نشاط إقتصادى وضعى يتخذ من العمل هدفا للنفع المادى فقط أما الإسلام فيتخذ من العمل وسيلة لغاية هى أعمار الأرض وتهيئتها للحياة الإنسانية تحقيقا للهدف الأسمى وهو خلافة الإنسان فى الأرض وإيمانا بأن الله سبحانه وتعالى سيسأل الإنسان عن هذه الخلافة . . لذلك فإن النظرة الدينية للعمل تجعل المصلحة هنا مصلحة إجتماعية عامة وليست مصلحة شخصية مجـردة ومتجـردة كما فى الإقتصاد الوضعى لأن الإنسان هنا لا تحكمه القوانين الوضعيه بمعنى أنه يجب أن يعمل ليحصل على أجر معين بنظرة مجـردة ومطلقة لكنه فى الفكر الإسلامى لديه جانب تحكمى أخطر وأعمق حيث أن هناك رقابة أخرى على الإنسان هى رقابة الضمير القائمة على إيمانه بالله والحساب فى الآخـرة وفى هذا يكون أكبر ضمان لسلوك الإنسان المسلم سلوكا سـويا . .

وإذا كان الاقتصاد الوضعى يبحث عن قضية اساسية هى انتاج السلع المادية وتوزيعها وتقديم الخدمات التى تشبع حاجات الانسان ونظرا لأن حاجات الانسان متعددة ومتنوعة اى غير محددة وتختلف بأختلاف الازمان والمكان فى الوقت الذى تتحق معه ندره نسبية فى الموارد الإقتصادية ومن ثم تكون المشكلة الاقتصادية قائمة وان اختلفت حدتها عن مجتمع لآخر حيث تقوم المشكلة الاقتصادية هنا على التوفيق بين الموارد المحدودة والحاجات الانسانية غير المحدودة ....

وهذه المشكلة الاقتصادية بمفهومها فى الفكر الاقتصادى الوضعى عولجت بمفهومين اولهما الفكر الراسمالى الذى يقوم على الحرية الاقتصادية ومبدأ الملكية الفردية ، وثانيهما الفكر الاشتراكى ويرتكز على الكية الجماعية التى تعتمد على تدخل الدولة بشكل سافر لاشباع الحاجات الاجتماعية ...

وكلا الفكرين سواء راسمالى او اشتراكى يعتمد على الحقيقة التى تؤمن بها فلسفة الاقتصاد الوضعى وهى ان حاجات الانسان غير محددة وهى نظرة نحن لانعتقد بها او فيها لان حاجات الانسان مهما بلغت محدودة ...

اما نظرة الاسلام فى هذا الخصوص فهى تقوم على اساس ان الانسان هو خليفة الله سبحانه وتعالى فى الارض يقيم عليها العمران باعتبار ان الغاية من خلقه هى عبادة الله تباركوتعالى ......

يقول الله سبحانه وتعالى :

"وإذ قال ربك للملآئكة انى جاعل فى الارض خليفة " **(البقرة : ٣٠)**

ويقول تباركوتعالى :

" وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون "
(الذاريات:٥٦)

هذا جانب اما الجانب الأخر فان الاسلام ينظر الى الموارد الاقتصادية على انها كافية تماما لاشباع حاجات الانسان ككل والدليل على ذلك قول الله سبحانه وتعالى :

" وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها ان الانسان لظلوم كفار "
(ابراهيم : ٣٤)

ويقول جل شأنه :

" وان من شيء الاعندنا خزائنه وما تنزله الا بقدر معلوم "

لذلك فان نقص الموارد فى مكان ما يرجع الى اسلوب استغلال الانسان لها سواء بأهدارها او بعدم الاستفادة الكاملة منها او الصراع على الاستيلاء عليها من جانب البعض دون الأخر ...

فالاســلام اذن يواجـه المشكلة الاقتصادية من زاوية الانسان وامكانية الانتاج ليس هذا فقط بل يواجهها ايضا من ناحية توزيع الناتج بما يضمن التوازن فى حقوق المجتمع ككـل ......

فالاسلام يهتم بتنمية طاقات الانسان الروحية لان الغاية من النشاط الانسانى فى الاسلام هى عبادة الله وليست الاهداف المادية بالدرجة الاولى كما فى الاقتصاد المادى والوضعى.

التنمية الاقتصادية فى مصر فى ضوء المنظور الاسلامى وإسلوب تحقيقها

لقد فشل الاقتصاديون فى مصر فشلا زريعا يرجع فى احد اسبابه الى تبعية الاقتصاد للسياسة وامر طبيعى اننا طالما فقدنا هويتنا السياسية فانه أمر حتمى ان نفقد هويتنا الاقتصاديه وذلك لان تكبيل معطيات الاقتصاد المختلفة بابعاد لعبة السياسة الاقتصادية ان جاز ان نسميها سياسة فارتبطت كافة القرارات الاقتصادية بأبعاد افكار رجال السلطة بعد ١٩٥٢ ورغبتهم فى الحفاظ على السلطة باى وسيلة ولو على حساب الواقع الاقتصادى .

كان هدف حكام مابعد ١٩٥٢ هو تحقيق السيطرة الغير محدودة على كل فكر بما فيهالافكار الاقتصادية لذلك كان طبيعيا ان يكون الاطار الاقتصادى بعد ١٩٥٢ اطارا هشا وضائعا لايقوم على علم وواقع اقتصادى بقدر مايقوم على محاولة الاقتصاديون الذين تولوا هذه المسئولية ذلك الوقت الى تفصيل مايتناسب مع هوى الحكام حفاظا على مصالحهم ومنافعهم الذاتية حتى ولو صاغوها فى جمل اقتصاديه او سياسية من أى نوع .

لذلك كان اول غرس زرعته عقيدة العسكريين فى فكرها هو السيطرة ثم السيطرة ثم السيطرة وبالتالى جاء الفكر الاقتصادى تابعا كليا للفكر السياسى قابعا فى حظيرة الرؤية السياسية القائمة على فلسفة واحدة هى تأمين كرسى الحكم .

من أجل ذلك استطيع القول انه لايمكن تصور ان بنيانا اقتصاديا قد قام في مصر على اسس علمية مدروسة كتجربة اليابان مثلا او قل حتى التجربة الهندية وانما الذى حدث فى مصر بعد ١٩٥٢ وحتى الستينيات لم يكن اكثر من قرارات اقتصادية تخدم لعبة السياسة او لعبة ارضاء الجماهير بدءا من عمليات التمصير المختلفة للمصالح التى كان لها ارتباط بالمصالح الاجنبية في مصر ثم بالاتجاه نحو التصنيع من خلال فلسفة وفكر اشتراكى بدء مع اجراءات التاميم وتغلغل مع تفرغ مدرسة المنتفعين من حماة النظام لشرح وتعميق هذا الفهم الاشتراكى باعتباره هو الاساس للتجربة الاقتصادية ذلك الوقت واصبح بالتالى قادة وصناع التنمية الاقتصادية هم خطباء السياسة ذلك الوقت الذين غمروا الصحافة ووسائل الاعلام بنظرية الانتاج المصرى والصناعة المصرية من الابرة الى الصاروخ ......

ورغم تحفظاتى الشخصية على تجارب الصناعة المصرية الا اننى ارى ان البداية الصناعية فى الخمسنيات والستينيات للصناعة فى مصر كان يمكن ان تحقق اثرها النسبى فى نمو الاقتصاد المصرى لولا ان وقعت عقول العسكريين المصريين القائمين على الحكم فى براثن تضارب الافكار الغربية والشرقية الذى اراد ان يعتبر التغير فى المناخ السياسى فى المنطلق من خلال تورط مصر فى حرب اليمن لامتصاص مواردها كبداية ثم نهاية بكارثة مصر الهائلة بهزيمة ١٩٦٧ والتى ادت تقريبا لفترة ليست قصيرة الى صرف النظر عن الشيء المسمى بالتنمية الاقتصادية فالفكر الغالب لرجال السلطة هو توفير القوت الضرورى والسلع الاستهلاكية الكافية للشعب ومحاولة الاعداد العسكرى من جديد لمرحلة مابعد الهزيمة اى ان النظام الحاكم ذلك الوقت كان لايزال تحت تأثير غيبوبة السيطرة رغم الهزيمة السوداء ولا يزال يتحايل للاحتفاظ بحلاوة كراسى السلطة من اجل اجهزته المعاونة من حماة النظام من بكافة المنتفعين الذين اشرنا اليهم من قبل والقائمين على أشلاء النهش المنظم الذى ساعدت عليه فوضى وتسيب مصر بعد النكسة من خلال انفلات القرار من يد صاحب القرار وتحول صناعة القرار فى مصر من يد الحاكم الى ايدى الاجهزة المعاونة التى استطاعت ان تصنع القرار الذى تريده من الحاكم من خلال البيانات المعدة بما يكفى لتوجية الحاكم للقرار الذين يريدونه وبالشكل الذى يجعلنى اصف هذه الفترة بانها كانت مرحلة او فترة تحكم الصف الثانى القابع على حافة السلطة فى قمة السلطة تحت المظلة الكاذبة المسماة بحماة النظام ..

وهكذا وقع المسئولون عن السلطة بعد ١٩٥٢ وحتى نهاية السبعينيات فى اطار الحلقة المعيبة التى يعانى منها الاقتصاد فى كل البلدان المتخلفة خاصة بعد انقضاء حقبة الاستعمار فى هذه الدول وتصارع القرارات الاقتصادية فيها بين افكار الغرب وافكار الشرق المستورة وكلاهما افكار ومفاهيم لاتتناسب مع واقع الحال الاقتصادى المصرى والذى كان يبحث عن فكر مصرى صرف من اجل التنمية .....

ان المفهوم الغربى للتنمية الاقتصادية يتناسب بلا شك مع واقع الحال فى بلدان الغرب لان المنظور الاقتصادى فى الفكر الغربى يقوم على اساس ان التنمية الاقتصادية تعنى زيادة الناتج القومى زيادة سنوية ملموسه حيث تعبر الزيادة فى أجمالى الناتج القومى ومتوسط نصيب الفرد من الدخل عن المؤشرات الاقتصادية الجوهرية للتنمية الاقتصادية ...

وقد ادى اعتناق هذا المفهوم لدى بعض مفكرينا الاقتصاديين اثر الحقبة الاستعمارية الى فقدان للهوية الاقتصادية المصرية ويرجع ذلك الى عدم ملاءمة النظرية الاقتصادية فى الفكر الغربى لظروف تطلعات التنمية فى مصر .... لماذا ؟

لأن التنمية فى الاقتصاد الغربى تعنى زيادة الانتاج ويرتبط بهذا العنصر مباشرة اعتبار ان الاستهلاك هو محور السلوك الانسانى ..

ومع احترامى الكامل لاساتذتنا فى الاقتصاد فإن هذا الفكر ان كان مناسبا تماما للغرب فانه جاء مناسبا لارتباط ظروف أوروبا وتوسعها فى القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر ...

ان الدارس لفكر أدم سميث فى كتابة " ثروة الامم " يجد ان فكره هو أساس المنظور الإقتصادى فى أوربا فى ذلك الوقت حيث كانت ثروة ورفاهية الامة تقاس بما تنتجه وتستهلكه من سلع وخدمات وترتب على ذلك اعتبار الدول المتقدمة هى تلك التى تتمتع بدخول مرتفعة .

ولقد تبنى بعض الاقتصاديين فى المرحلة السابقة مفهوم ارتباط التنمية باستيراد التكنولوجيا باعتبارها الحل الوحيد لامراض التخلف فى مصر وهو رأى غير سليم من وجهة نظرى لان التكنولوجيا هى محصلة للتطور الاجتماعى الذى حققته البلدان المتقدمة وما حققته من تراكم فى الخبرات العلمية فهى اذن تعبير بشكل طبيعى عن التقدم فى هذه البلاد ...

أما فى مصر وماشابهها من البلدان فإن إستيراد التكنولوچيا بشكل عشوائي وبتقليد أعمى إنما هو أمر لايناسب طبيعـة طبيعة إقتصاديات مصر وهى أشبه بجلباب مهلهل يرتديه شخص ما وبدلا من أن يقوم بستـر جسده بشراء ثوب جديد تماما مهما كان بسيطا فى البدايه فإنه يقوم بشراء قطع من الأقمشة الراقيـة جدا كالدورمى والهيـلد لترقيع الثوب المهلهل وماتلبث أن تمـر أيام معدوده فلا يتحمل الثوب المهلهل ثقل قطع القماش الجديدة التى تسد ثقوب الثوب فلا يتحمل هذا الثقل فيسقط الثوب كله من على جسد صاحبه ليجد نفسه عاريا . .

هذه حقيقة تعانى منها مصر مع غيرها من البلدان المختلفة والتى تعتمد على سياسة الترقيع الصناعى القائم على تكنولوچيا مستـوردة بدون أسس تتناسب مع طبيعة الجسد الإقتصادى المصرى حيث أن عدم تطويع هذه التكنولوچيا طبقا لظروفنا الإقتصاديه يخلق نوعـا من التبعيـة الدائمـــه بين البلاد الفقيرة والبلاد المتقدمـة . .

وهكذا تجد عزيزى القارىء ان فقدان الهوية السياسية ادى الى فقدان الهوية الاقتتصادية بل ان قضية رجال السلطة بعد ١٩٥٢ وما تسبب عنهم دفاعهم المستميت عن كراسى السلطة ادى الى فساد غرسته شعارات لا تربط الاقوال بالافعال مما أدى الى خلق كارثه ادارية فى مصر حيث اصبح لرجال الادارة فى مصر اى كل من يملك سلطة ثقلا غير عادى فانت تستطيع بقدر ما تملك من سلطة ان تدبر وان تحقق لذاتك بقدر ما تملكه منها واصبح تولى المنصب الادارى ليس قائما على كفاءة او قدرة او خبرة بقدر مايعتمد على الولاء للنظام والمساهمة فى حمايته وادى هذا بالطبع الى خلل ادارى رهيب والى انتشار الرشوة والاختلاسات والمحسوبيةوقتل الكفاءات او قبرها او احباطها مما ادى الى خلق وغرس مفهوم جديد فى عقيدة الناس لايستند الى سلطة الدولة وهيبتها بقدر مايعتمد على اعتناق المواطن لفلسفة انه يستطيع ان ينجز مصالحه سواء بالرشوة او الوساطة الى آخره من وسائل صنعها الفساد الادارى الذى خلقته طبقات جديدة من الانتهازيين جعل السواد الاعظم من الشعب يزداد قناعة بانه لايستطيع تحقيق اماله من خلال عدالة حقيقية تقوم بين ابناء الوطن او الشعب الواحد .

لذلك فان اعادة او استعادة الهوية الاقتصادية المصرية يتطلب اولا واخيرا عدلا اجتماعيا يضمن تحمل كل مواطن مصرى لنصيبه فى البناء الوطنى دون ان يكون متحملا لنصيب الاخرين لاى سبب من الاسباب فليس من العدالة ان يسدد المواطن البسيط الضرائب نيابة عن راكبى الزلكة وخريجى مدرسة الانفتاح سواء من " المعلمين " او من لوبى تجمعات الاداره فى مصر كما سيتضح فى الفصل التالى ولايعقل ابدا ايها السادة ان تظل التجربة الاقتصادية المصرية ان جاز لى ان اسميها كذلك أن تظل تعيش على القروض والهبات والمعونات تارة من الغرب وتارة من الشرق وتارة من العرب دون ان يكون هناك موارد ذاتية كافية ممثلة فى عائدات قناة السويس وتحويلات المصريين من الخارج وناتج البترول المصرى وعائدات السياحة وهى موارد غير كافية حاليا لسد احتياجات التمويل الاقتصادى المصرى من اجل صنع تنمية اقتصادية حقيقية يمكن معها ان نتبين هوية اقتصادية واضحة ..

ويعد هذا امرا ليس عفويا اوجاء وليد الصدفة لكنى ارى انه يعد مخططا استعماريا مدروسا لهذا أجد ان الخطأ العظيم لمفكرينا الاقتصاديين نظرتهم للتنمية الاقتصادية على ضوء مفاهيم مستوردة لاتواكب ولاتتواءم مع المناخ الثقافى والاجتماعى والاقتصادى لمصر والأصل ان يكون مفهوم التنمية الاقتصادية فى مصر نابعا من الايمان بحقيقة هامة وهى ان مصر لم تكن متخلفة طوال العمر وانما مرت بظروف تاريخية جعلتها من قبل فى صدارة البلدان كما ان تخلفها جاء لظروف تاريخية معروفة ايضا يضاف لذلك ان البلاد المتقدمة فى عصرنا الحالى لم تحتل هذه المكانة المتقدمة الامنذ قرنين من الزمان بدءا من الثورة الصناعية وحتى الأن لذلك جاء فكر التنمية الاقتصادية الغربى مواكبا لظروفهم لكنه ليس بالضرورة ان يكون اساسا لتحقيق التنمية عندنا ...

ان مفهوم التنمية الاقتصادية فى مصر يجب ان تبدأ من خلال البنيان الحضارى لمصر بكل جوانبه المادية والمعنوية ومن خلال التراث المصرى وهو كاف تماما لتفجير طاقات الشعب المصرى من اجل البناء والتنمية .

ان مشوار الثقة بعيد جدا بين فكرنا وفكر الغرب تفصل بينهما ثقة غير موجودة فى وجداننا فى اعقاب حقبة استعمارية ظلمنا فيها من قوى معادية للاسلام الا انها كقوى استعمارية لم تستطيع ان تكسر حاجز العقيدة الدينية لانها عقيدة تعيش فى وجداننا لكنها

معطلة الاستخدام فيما يتعلق بقضية التنمية لان اساس النظام الاسلامى هو شريعة الاسلام التى جعلت الاصل هو الايمان العميق بالغيب مما يحد من قوة واغراء المادة وهو ايمان يعطى العمل مرتبة تصل الى درجة العباده ..

ولهذا فأن العمل فى الاسلام يعتبر طاقة جوهرية محركة فى عملية التقدم والتنمية ولابد لمصر فى عملية التنمية الاقتصادية المرجوه أن تعبىء وتحرك هذه الطاقة تعبئة غير عادية لان التنمية بهذا الشكل ستقوم على محورين الاول هو المحور المادى والثانى هو المحور المعنوى لذلك فقد كانت القضية المحورية للاستعمار هى ضرب القدرة الاسلامية لضمان استمرار التخلف والتبعية والاستغلال وهو خطأ كبير وقع فيه قادة حركة ٢٣ يوليو بضربهم الاخوان المسلمين وما كان ذلك الا لوقوع قادة هذه الحركة تحت تأثير التحريك السيكولوجى الذى يحسنه الاستعمار الحديث فى السيطرة على المواقع التى تركوها من قبل فى صورة إحتلال عسكرى إستمرارا لمصالحهم بشكل من السيطرة من نوع جديد وأننى على يقين أن كل الحركات العسكرية المشابهه لحركة ٢٣ يوليو فى بلدان العالم الثالث تعرضت لمافيا الإستعمار الحديث التى تتحكم فى صناعة القرار فى دول العالم الثالث من خلال اللوبى الذى يخلق ويخطط له فى كل المواقع المؤثرة بما يحقق الأهداف بعيدة المدى للدول الإستعمارية .
ولاشك أن تركيز الإستعمار على ضرب الحركة الإسلامية هو أحد أهدافه بعيدة المدى لأن الجانب العقيدى هو أخطر الجوانب التى يمكن أن تحطم اللوبى الإستعمارى فى بلاد العالم المتخلف الإسلامية لأن هذا الجانب هو الجانب المؤثر بحق فى تقدم مصر ومثيلها من الشعوب الإسلامية .

وإذا كان الإستعمار القديم قد نجح بالفعل فى إستعمارنا حديثا فكريا وإقتصاديا فإن مانحن فيه اليوم من تخلف وتبعية إنما هو إمتداد للإستعمار القديم ومن ثم فإننى أرجو مفكرينا الإقتصاديين بإعتبارى واحدا من صغار الباحثين الإقتصاديين وإن كنت أجمع بين الدراسة الأكاديمية والخبرة العملية فى المجال الإقتصادى أرجو أن يعتنقوا مفهوما للتنمية الإقتصادية أراه واضحـا فى كتاب لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه أرسله الى الوالى فى مصر يقول فيه :

" وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في إستجلاب الخوارج لأن ذلك لايدرك إلا بالعمارة ومن طلب الخراج من غير عمارة أخرب البلاد " .

والعمارة في الأرض لفظ ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى :

" هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها "

(هود : ٦١)

كما أنني أذكر مفكرينا وعلمائنا الإقتصاديين بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما لخص لنا مهمة القادة وأساس الحكم في خطاب موجه الى نائبه على أحد أقاليم الدولة حين سأله :

ماذا نفعل إذا جاءنا سارق ؟

قال : إقطع يده

وإذن فإن جاءني منهم جائع أو عاطل فسوف أقطع يدك إن الله سبحانه وتعالى إستخلفنا على عباده لنسد جوعهم ونستر عورتهم ونوفر لهم حرفتهم فإذا أعطيناهم هذه النعم تقاضينا شكرها ياهذا :

" إن الله خلق الأيدي لتعمل فإذا لم تجد الطاقة عملا إلتمست في المعصية أعمالها فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية . .

وخلاصة قول عمر بن الخطاب أن :

- نوفر فرص العمل بإيجاد مصادره .
- أن البطالة فساد يجب القضاء عليه لتوفير فرص العمل النافع .
- إن شرط إقامة الحد على الناس تحقيق الكفاية لهم .

هذا هو الجانب الأول في فكر ومفهوم التنمية الإقتصادية في الإسلام ، أما الجانب الثاني :

فنراه واضحا جليا في قول الله عز وجل منذ أربعة عشر قرنا حيث رأينا التعبير عن الفائض الإقتصادي بإصطلاح العفو أو الفضل وإعتبار التبذير سفها والترف جرما وبإعتبار أن صرف مازاد عن الحاجة أو الكفاية بغير إسراف أو ترف في سبيل الله أي في صالح المجتمع وتنميته . . وقد كان ذلك هو سر نجاح المسلمين الأوائل وماحققوه من إزدهار . ويتضح

من ذلك إرتباط المنهج الإسلامى فى التنمية بالسياسة المالية للدولة الإسلامية لأن السياسة المالية فى الإسلام لاتكتفى بتموين الدولة بنفقاتها اللازمة وإنما تستهدف المساهمة فى إقرار التوازن الإجتماعى والتكافل العام .

وأنه لمن الفخر للمسلمين أن نذكرهم بمفكرينا المسلمين الأوائل الذين سبقوا الغرب فى طرح مفهوم القضايا الإقتصادية فمن أوائل المؤلفات الإقتصادية العالمية فى مجال التنمية الإقتصادية كتاب العلامة إبن خلدون فى مقدمته المشهورة سنة ٧٨٤ هـ تحت عنوان : " الحضارة وكيفية تحقيقها " ، حيث عالج فى هذه المقدمة قضايا التنمية الإقتصادية .

ونذكر أيضا كتاب الخراج للامام ابى يوسف ويعتبر قمة فى بحوث التنمية الاقتصادية...

اما الجانب الثالث فى مفهوم التنمية الاقتصادية فى الاسلام

فهو ارتباطها بالناحية الاخلاقية فالتكامل الاجتماعى لايقتضى أخذ مال الغنى عنوة من أجل كفالة الفقير وانما جعل الاسلام ذلك واجبا اخلاقيا ينبع من دافع نفسى اخلاقى يدفع الانسان نفسه الى المساهمة فى تحقيق غايات التنمية الاقتصادية طلبا لرضوان الله سبحانه وتعالى .

أى ان التنمية الاقتصادية لاتفصل فى الاسلام بين ما هو مادى وما هو روحى ولاتفرق بين ما هو ضرورى فكل نشاط مادى أو دنيوى يباشره الانسان هو فى نظر الاسلام عمل روحى او ضرورى طالما كان مشروعا .....

لذلك فان التنمية الاقتصادية فى الاسلام تعنى منهجا شموليا يقتضى ان تضمن التنمية تحقيق الاحتياجات البشرية جميعها من ماكل وملبس ومسكن ونقل وتعليم وترفيه ودواء وعمل الى آخر ذلك لكنها لاتعنى تنمية راسمالية تضمن حرية التعبير دون ضمان لقمة العيش كما لا تعنى تنمية اشتراكية تضمن لقمة العيش ولا تضمن بل تلغى حرية التعبير .

اما الجانب الرابع فى مفهوم التنمية الاقتصادية فى الاسلام

فهو عدم استهداف التنمية لزيادة الانتاج فحسب وانما تستهدف العدل أى عدالة التوزيع اذ يقول الله سبحانه وتعالى :

" اعدلوا هو أقرب للتقوى " (المائدة : ٨)

اى ان هدف التنمية الاقتصادية فى الاسلام هو توفير احتياجات الانسان بالشكل المعيشى اللائق حتى يستشعر الانسان نعم المولى عليه فيتجه الى شكر الله تلقائيا وليس الحمد والشكر فى الاسلام قولا وامتنانا فحسب بل هو ايضا بالعمل المخلص اذ يقول الله سبحانه وتعالى ك

" اعملوا آل داود شكرا " (سبا : ١٣)

كما ان العبادة لا تتمثل فى الصلاة والتوجه الى الله فحسب وانما ايضا بخدمته الاخرين وتقديم يد العون لهم اذ يقول الله سبحانه وتعالى :

" لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر
بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس "
(النساء : ١١٤)

وهكذا فإن الإسلام إذ يتطلب زيادة الإنتاج يستلزم عدالة التوزيع فإن وفرة الإنتاج إذا صاحبها سوء فى التوزيع فإنه يعتبر إحتكارا لايقره الإسلام ، كما إن عدالة التوزيع دون إنتاج فإنها تكون توزيعا للفقر يرفضه الإسلام .

وبهذا الفكر فإن التنمية الإقتصادية فى الإسلام ترفض فكر التنمية الإقتصادية الرأسمالية التى تستهدف تنمية ثروة المجتمع دون النظر الى توزيع هذه الثروة .

كما أن التنمية فى الإسلام ترفض التنمية الإشتراكية التى تربط بين الإنتاج والتوزيع إلا أنها ترى إن التوزيع يتبع دائما الإنتاج لأن التنمية فى الإسلام تؤمن بأنه أيا كان أو كانت أشكال الإنتاج السائده فإنه من الضرورى ضمان حد الكفاية لكل فرد حسب حاجته وهو حق شرعه الله فوق كل الحقوق ثم بعد ذلك يكون لكل نصيب حسب عمله وجهده .

أما الجانب الخامس فى قضية التنمية الإقتصادية بمنهجها الإسلامى فهو قيامها على الواقعية وهذا واضح من علاج الإسلام لمشكلة الفقر فقد فرض الإسلام نظام الزكاة كحل لمشكلةالفقراء وذلك حين كانت النظم والشرائع الأخرى تعتمد على فكرة الأحسان الفردى الذى يقدم للفقراء المساعدة وذلك منة وتفضلا من الأغنياء ولكن هذه الفكرة لم تستطع حل مشكلة الفقر لأنها تقوم على الإختيار المطلق للإنسان .

أما فى الإسلام فإن مشكلة الفقر قد تم علاجها بطريقة واقعية حين أصبح للفقراء حق معلوم فى أموال الأغنياء تتولى الدولة مسئولية إجبار الأغنياء على سداده عند الإمتناع عن ذلك وتعيد توزيعــه على الفقــراء .

وطبقا لهذه القاعدة أجمع الفقهاء على وجوب نفقة المعسر على قريبه الموسر وقد ذهب الإمام بن حــزم الى أنه :

" يجب على الأغنياء فى كل بلد أن يقوموا بكفاية فقرائهم إذا لم تكفى الزكــاة "

يقول إبن حــزم :

" وفرض على الأغنياء من أهـل كل بلد أن يقومـوا بفقرائهم ويجبرهـم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم ولا فى سائر أموال المسلمين بهم فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لابد منه ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك وبمسكن يقيهم من المطر والصيف وعيون المارة " .

ومن الجوانب الخمسة لمفهوم التنمية الإقتصادية فى الإسلام التى تم إستعراضها يتضح لنا أن الغاية والهدف معا لهذه التنمية هو الإنسان ذاته ليتحقق له سبب وجوده وهو خلافة الله فى الأرض ويصبح هو غاية التنمية الإقتصادية وهدفها على خلاف الباعث فى التنمية الإقتصادية الرأسمالية وهو تحقيق أكبر قدر من الربح وهو باعث إنتهى الى سيادة المادة على كل شــئ .

وهو أيضا على خلاف الباعث فى التنمية الإشتراكية التى تهدف الى سد حاجات الدولة وهو باعث غير حقيقى لأن التنمية الإشتراكية تهدف أيضا الى تحقيق الربح من خلال سخرة الناس ويقسم العائد طبقا لأطماع الحكام وليس وفقا لحاجات الناس مما جعل الإنسان هناك بلا حريــة فهو ليس أكثر من آلة تتحرك طبقا لرأى ورغبــة السلطة .

أما الباعث العظيم للتنمية فى الإسلام هو توفير حد الكفاية لكل مواطن وهذا فى حد ذاته كفيل بتحرير الفرد من أية عبودية سواء فى مجال المال أو الحكم فالعبودية لله وحده سبحانه وتعالى وهذا يجعل الإنسان هو الهدف فى ذاتــه حتى لاتستعبده المادة كما فى الرأسمالية ـ أو تستذله السلطة كما هو قائم عند تجار الإشتراكية بما يضمن أن يعيش الإنسان مكرما يعمــر الدنيا بالعمل الصالح ليكون بحق خليفة الله فى الأرض .

لذلك فإن الإسلام يريد أن يرتفع بالإنسان الى المستوى اللائق به كمخلوق خلقه الله فى أحسن تقويم

يقول الله تعالى :

" الم نجعل الأرض مهادا والجبال اوتادا وخلقناكم ازواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا وانزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات الفافا "

(النبا : ٦- ١٦)

فالإنسان فى نظر الإسلام هو أسمى من فى الوجود فهو لم يخلق كحيوان لاهم له فى الحياة سوى المأكل والمشرب والجنس بل أن له حقوق معنوية الى جانب الحقوق المادية وكما يقول الإمام الغزالى :

إن مقصود الشرع من الخلق خمسة : وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم "

وهذه الحقوق الطبيعية للإنسان لابد له أن يدافع عنها لأن المتهاونين ينتظرهم عذاب أليم إذ يقول الله سبحانه وتعالى :

" إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك ماواهم جهنم وساءت مصيرا "

(النساء : ٩٧)

التخطيط الإقتصادى ومفهومه الإسلامى

قدم القرآن الكريم صورتين كريمتين من صور التخطيط الإقتصادى قصها الله سبحانه وتعالى فى مناسبتين كريمتين الأولى مع نبى هو سيدنا يوسف عليه السلام والثانية مع قائد هو ذو القرنين الذى بنى سدا بالإعتماد على النفس ففى القصة الأولى يقول الله سبحانه وتعالى فى قصة يوسف عليه السلام :

" وقال الملك انى ارى سبع بقرات سمان ياكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر واخر يابسات ، ياايها الملا افتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون ، قالوا اضغاث احلام ومانحن بتاويل الاحلام بعالمين ، وقال الذى نجا منهما وادكر بعد امة انا انبئكم بتاويله فارسلون يوسف ايها الصديق افتنا فى سبع بقرات سمان ياكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر واخر يابسات لعلى ارجع الى الناس لعلهم يعلمون قال تزرعون سبع سنين دابا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تاكلون ثم ياتى من بعد ذلك سبع شداد ياكلن ماقدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ثم ياتى بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون "

(يوسف : ٤٣ - ٤٩)

من هذه الآيات الكريمة يتضح وجـود خطـة لسيدنا يوسف تقوم على :

١ - عمل دائب لاينقطـع للزراعـة .

٢ - ضرورة تخزين الثمار وحفظها من التلف بتخزين مايكفى منها لسنوات المجاعة بتركه فى سنابله حفاظا عليه بعد التسوس وعوامل البيئـة .

٣ - ضرورة عدم الإسـراف فى الإستهلاك كما فى قوله تعالى :

" إلا قليلا مما تاكـلون "

٤ - ضرورة تحقيق فائض يسمح بإعادة الإنتاج حيث لم ينسى سيدنا يوسف توفير فائض يسمح بإعادة الإنتاج مرة أخرى فى المستقبل .

٥ - ولما كان تحقيق فائض لإعادة الإنتاج ضروريا فإن هذا ليس كافيا وحده بل لابد له من حسن إستخدام هذا الفائض فى العملية الإنتاجية وتحقيق الموازنة بين كل من الإنتاج والإستهلاك لتوليد مزيد من الفائض الذى يساعد بدوره على إعادة الإنتاج وتحقيق الرخـاء .

ولاشك أنه كان لإستجابة الملك لطلبات سيدنا يوسف عليه السلام وحكمتـه وتخطيطه الدقيق الجيد الفضل فى تفادى التخطيط والمجاعـة فى سنواتها العجاف والخروج بمصر من الأزمـة ذلك الوقت .

أما عن قصـة ذى القرنين فإنها تدور مع الطغـاة يأجـوج ومأجـوج والقوم المستضعفين الذين يصفهم القرآن الكريم بقوله :

" لايكـادون يفقهـون قولا "

وقد وضع القائد ذى القرنين قوته فى خدمة العدل ولذلك عرض عليه المستضعفون أن يجمعـوا له مالا ليتولى مسئولية بناء السـد .

يقول الله سبحانه وتعـالى :

" قالوا ياذا القرنين ان ياجوج وماجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجـا على ان تجعل بيننا وبينهم سـدا "

لكن ذا القرنيين بحكمة القائد يطلب منهم مشاركته فى العمل دون أن يقتصر دورهم على مجـرد تقديم المال لذلك مكنـه الله مما هو فيه الخير ، يقول الله تعالى :

" قال ما مكنى فيه ربى خيرا فاعينونى

بقوة اجعل بينكم وبينهم ردما "

وهكـذا طلب القائد معاونتهم كلما إحتاج اليهم لدفع العمـل على أساس يقوم على حسن المعاملة لذلك طلب منهم البحث عن الحديد فى أرضهم لتحقيق الهدف الكبير وهو بناء السد بينهم وبين هؤلاء الطغـاة فقـال : " أتونى زبـر الحديد " أى قطع الحديد من الأرض وبالبحث عن الحديد يتحول المستضعفـون الى عمل جـاد يخرجون به كنـوز الأرض ومن ثم إيمانهم بالله إعتمـادهم على أنفسهم على أساس الإيمان والعدالة فينفخـون الحـديد إستجابة لأمر ذى القرنين " إنفخـوا " فيلتهب كما إلتهبت النفوس من العمل الجـاد الهادف من خلال تخطيط محكم لهدف كامل الوضوح إلى أن يرتفع صوت ذا القرنين الذى يشارك فى العمل بنفسه :

" أتونى أفرغ عليه قطـر " أى نحـاسا مذابا ومعنى ذلك أن ثمـة مجموعـة أخرى من القوم تعد النحاس المصهـور فى نفس الوقت الذى كانت فيه المجموعة الأولى تعـد الحديد وفى مرحلة مايصب القائد النحاس المصهـور على الحديد الملتهب ليصبح السد قطعـة واحـدة كما أصبح الشعب كتلة واحدة بعمله الدائب وهدفه الواضح المحـدود .

ولم ينس ذا القرنين التأكد من إختبار قوة السد فأمر قومه بأن يتسلقوه أو يحاولوا إختراقه يقول الله سبحانه وتعالى :

" فما إسطاعوا أن يظهروه وما إستطاعوا

له نقبـا "

وعند ذلك شكـر القائد ربه فقال :

" هـذا رحمـة من ربى "

هذه الصور هى دليل عملى وعلمى على قيمة التخطيط الإقتصادى النابع من الحاجة الواقعية وهو ماكان واجبا على مفكرينا الإقتصاديين بضرورة البحث عن حلول لمشاكلنا الإقتصادية من واقع حالنا وواقعنا بدلا من أفكار درست فى الخارج وتم تطويرها من

خلال غسيل مخ إستعمارى دار بهم فى فلك إستيراد نظريات الخارج ومحاولة تطبيقها على ظروفنا المختلفة تماما عن أصحـاب هذه النظريات والبيئـات التى نشأت من خلالها .

ولهذا فالواجب فى مرحلة بناء مصر القادمة أن نؤمن بأن التخطيط السليم قوامه الإيمان العميق بالله ثم بالهدف ثم بالإنسان فإن أى تخطيط سيكون مضمون النجاح بإذن الله إذا كان قائده ودافعه إيمانا غير محدود بالله الواحد الأحد ، يقول الله سبحانه وتعالى :

" ومـن أعرض عن ذكـرى فإن له معيشة ضنكـا ونحشـره يـوم القيامـة اعمى . قـال رب لـم حشرتنـى اعمـى وقـد كنـت بصيرا قال كذلك اتتك اياتنا فنسيتهـا وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى مـن اسرف ولم يؤمن بايات ربه ولعذاب الاخرة اشد وابقى "

(طه ١٢٤ - ١٢٧)

وهكـذا قدم الإسلام لنا نماذج للتخطيط توضح أهميته فى تحقيق الهدف من خلال السيطرة على الإمكانيات المتاحة وحسن إستخدامها وتنميتها ووضعها موضع التنفيذ وذلك من خلال سلطة تخطيطيـه مركزية – كما رأينا فى قصـة ذى القرنين – كان لها القدرة على التصرف وإصـدار القرارات التنفيذية ومتابعتها من أجل تحقيق الهدف المرجو الذى يخدم المصلحـة العامة للمجتمع بأسـرة وهى أمور لايمكن أن تتحقق إلا بوجود قيادة معبرة فعلا عن صالح الجميع " .

لقد نجح ذى القرنين لأنه وضع خطه على أساس معرفة واقعية لصورة المجتمع الذى يقوده فاختار الوسائل الواقعية من أجل تحقيق الهدف وهو ما إفتقدناه فى زماننا المعاصر حيث جاءت خططنا الإقتصادية بعيدة تماما عن تحقيق الهدف المرجو وهو إشباع إحتياجات المجتمع الأساسيه ويرجع ذلك إلى إفتقادنا أول شروط تحقيق التقدم الإقتصادى والإجتماعى وهو الإستقلال السياسى للمجتمع .

لابد أن ننتبه الى معاناتنا من الإستعمار الجديد كما سبق أن ذكرت الذى يسعى كل السعى لأحكام سيطرته على مصر وغيرها من الدول المتخلفة لفرض سيطرته من خلال التحكم فى رغيف الخبز لجماهير هذه الشعـوب .

وفى هذا الصدد أكد الإقتصادى السويدى غونـار ميردال فى كتابه " نقد النمو " يقول :

" لرسوخ الفساد فى البلدان المتخلفة سبب هام هو عادة تقديم الرشوة الى السياسيين والموظفين التى تلجـأ اليها الشركات الغربية من أجل الحصول على أسواق لها وتقرير أعمالها بدون أن تلاقى عقبات كبيرة " .

إن البلدان الغربية المهيمنه إقتصاديا قد دعمت الرجعية الإقتصادية والإجتماعية والسياسية الأشد شؤما فى البلدان المتخلفة وعندما تحاشى الإقتصاديون تحليل أهمية الإصلاحات المحلية الجذرية الأساسية لتنمية البلدان المتخلفة كان هذا الإنحـراف مرضيا ليس للأقليات الحاكمـة فى هذه البلدان وحسب بل كان مواكبا للسياسات التى تنتهجهـا بالفعل هذه البلدان الغربيه المتطـورة " .

إننى من المؤمنين بأنه لا أمل فى هوية إقتصادية مصرية مالم تكن هناك سلطة سياسية ممثلة فعلا لوحدة مصالح أفراد المجتمع وفئاته المختلفة وتعمل بنزاهـه وأمانة كاملة من أجل دفـع عجلة الإقتصاد القومى وإعادة تطويره لصالح الجميع بعدالة كاملة مع ضرورة أن تكون هذه السلطات السياسية تمتلك الإرادة الواعية والقدرة على إدراك مسألة التخلف ومدى إرتباطها بالفلك الإستعمارى وإيمانها بأهمية وحيوية الفكاك من هذا الفلك كسبيل وحيد للتحرك للأمام .

ولا أمل نهائيا إذا لم تتوفر هذه الحقيقة لأنها السبيل الوحيد لتعبئة جماهير الشعب المصرى العريضة والتى هى صاحبة المصلحة العليا فى تحقيق التقدم الإقتصادى المرجو وهذا نابع من إيمانى بأن سلطة الحكم تنبع أولا وأخيرا من مدى تعبيرها عن تكاتف مصالح أبناء الوطن النسبيه وبدون ذلك فإن السلطات السياسية لن تستطيع تحقيق أى إنجاز لأنه مجتمعـا فقد هويته السياسيه .

لابد وأن يفقد هويته الإقتصادية وهو مانعانى منه تماما فى مصر فنحن لانستطيع القول كما ذكرت بأن إقتصادنا إقتصاد إشتراكى رغم الزج بمفاهيم الإشتراكية لحقبة طويله من الشعارات وأبواق الدعاية ، كما أننا لانستطيع القول بأن إقتصادنا إقتصاد رأسمالى فهناك ثراء غير مشروع إمتلأت به مصر ناتج عن الإفرازات الهلامية لحركة ٢٣ يوليو كما سبق أيضاحه والتى أفرزت بالتبعية قرارات لاحصر لها غير مدروسة ثم إنتهت بهوجائية إقتصادية سميت بعصر الإنفتاح الساداتى وهى التى أكملت مسيرة التسيب وخلقت لنا شعارا جديدا بالخطف والجرى .

وكانت النتيجة الطبيعية تناقضا عجيبا جدا فى شارع الإقتصاد المصرى فأنت تجد كل شئ من السلع الإستفزازية جدا والتى لاتناسب سوى قلة قليلة من أثرياء الإنفتاح ولصوص العمولات فى كل المواقع .

وهكذا إنتهى الحال بمديونية على الإقتصاد المصرى تجاوز أربعين مليارا لتصل بحال الجنيه المصرى الى قيمة تقل عن ثمن الورق الذى يطبع عليه .

إن إستعادة الهوية الإقتصادية المصرية لمن يريد ذلك بإخلاص يتطلب خطوات مدروسة نتصورها فى البرنامج الآتى :

١ - الفصل التام بين الإقتصاد والسياسة بمعنى ألا يتم إتخاذ أى قرار إقتصادى لأسباب أو دوافع سياسية تؤدى الى التأخير أو عرقلة عملية النمو الإقتصادى المرجوة بحيث لايصدر القرار الإقتصادى إلا بعد دراسة لأبعاده الإقتصادية المختلفة ضمانا لنتائج مؤثرة وفعالة .

٢ - خلق طلب على الجنيه المصرى لتحسين وضعه النسبى أمام العملات العالمية القوية ولتكن البداية بتحصيل عائدات قناة السويس بالجنيه المصرى وقبول ثمن جميع الصادرات المصرية بالجنيه المصرى لخلق طلب تدريجى على الجنيه المصرى ومن خلال تعويض هذه الحصيلة بالعملة الأجنبيه من فتح أفاق الإقتصاد القومى على السياحة كمصدر إساسى للدخل القومى كما سنوضحه .

٣ - إعتناق مفهوم جديد بإيمان عميق أن السياحة يمكن أن تكون المصدر الرئيسى للدخل القومى فى مصر ولن يتحقق ذلك إلا بالإستفادة من تجارب الدول التى

تعيش على السياحة رغم أنها تمتلك إمكانيات سياحية تعادل واحد فى المائة من إمكانيات مصر وتتطلب السياحة الآتى :

أ) إن السياحة فى مصر تحتاج الى تركيز شديد فى إصدار القرارات الخاصة بها ويتطلب ذلك تحريرها من تشابك قدراتها التنفيذية مع الأجهزة المختلفة للدولة لذلك يتحتم أن نخرج السياحة من إطار مجلس الوزراء وتكون تبعيتها لرئاسة الجمهورية مباشرة حيث قمة السلطة بحيث تذلل لها السبل على الأقل فى المرحلة القادمة لحين وضع الأقدام على الطريق فنحن بعد لم نتخلص من عادة ضرورة أن يصدر القرار من قمة السلطة حتى يكون له قوة الإلزام التنفيذى .

ب) أنه جزء لايتجزأ من تجميل فن السياحة ضرورة نقل جميع الوزارات خارج القاهرة والإكتفاء فقط بوزارة الخارجية وجهاز رئاسة الجمهورية فى القاهرة كوسيلة وحيدة لتخفيف الزحام الغير طبيعي فى القاهرة واجهة مصر الأولى أمام السائح .

ج) طرح الشواطئ المصرية النادرة فى جنوب سيناء والساحل الغربى من خلال تقسيمها الى مساحات كيلومترية تطرح فى مناقصات عالمية لإستغلالها مقابل عائد سنوى ثابت بالعملة الأجنبية مضافا اليه نسبه من العائد العام للمشاريع ومن خلال عقود إمتياز طويلة الأجل تضمن إقبال هذه المشاريع الأجنبية وإستمراريتها وتأمينها فى تغطية رؤوس أموالها وبدون التدخل فى طبيعة نشاطها السياحى لقدرة المستثمرين فى هذه المشروعات على خلق وتسويق السياحة لهذه المشاريع وبهذا يمكن أن نضمن للخزانة العامة عائد سنوى ثابت بالعملة الأجنبيه وكذا نسبة من الإيراد العام لهذه المشاريع وبذلك نضمن قيام هذه المشاريع بعمل الإستثمارات اللازمة لخدمة مشاريعها السياحية من شبكات طرق ومياه وإنارة وخلافه ولو بإشتراك أكثر من مشروع فى توفير هذه الإمكانيات لتقليل التكلفة الحدية لكل مشروع على حده ، وهذا فى حد ذاته فى حالة إنجازه يعد قيمة مضافة للإقتصاد

القومى مع توفير عبء البحث عن إمكانيات هائلة لتمويل البنية الأساسية لهذه المناطق بالجهود الذاتية يضاف لذلك ماستحققه هذه المشاريع من خلق فرص عماله للمصريين .

٤ - السماح للمستثمرين إنشاء مشروعاتهم فى مصر بدون أى قيود بيروقراطية أو إدارية وخاصة بتحريرهم من أى قيود على تحويلاتهم النقدية من وإلى مصر .

٥ - إصـدار قانون يسمح لأصحاب المدخرات خارج مصر بإدخال أرصدتهم لمصر دون السؤال عن مصدرها مع سداد سعر الفائدة العالميـة لهم بشرط سداد ٢٥ ٪ من المدخرات ضريبة مقدما عن خمس سنوات بواقع خمسة فى المائة عن كل سنة يصير بعدها لهذه المدخرات الحرية الكاملة فى ممارسة أى أنشطـة مشروعة مع حريتها فى الخروج من والى مصر ويطبق هذا القانون على ذوى الأعمال الحرة خارج مصر أو الذين يمارسون أعمال حـرة خارج مصر وهم داخلها ومضطرون الى الإختباء هـربا من قوانين الكسب غير المشروع ومن أين لك هذا فالحكمـة من إصدار هذا القانون إعطـاء الفرصة لبعض الناس الذين كونوا ثروات خارج مصر أن يعـودوا بها الى مصر دون مسـاءلة من أى نوع طالما سددوا ربع القيمة مقدما تحت مسمى ضرائب إرتجاع دخل وبهذا الأسلوب نعطى فرصة للتوبة لمن أراد من أصحاب المليارات خارج مصر بالعودة بها الى مصر . أما فى حالة الراغبين فى عدم تطبيق هذا النظام عليهم فليس مطلوبا منهم سوى شهادة موثقـة من السفارة المصرية فى البلدان التى يعملون فيها بجهـة العمل التى كانوا يعملون بها وراتبهـم ولايطلب منهم أى شئ آخر فنحن لانريد تعقيد أى شئ أمام هؤلاء المصريين من أجل جذب أموالهم لمصر بدلا من إيداعها فى البنوك الأجنبيه .

٦ - الأسواق الحرة فى مصر وكيف يمكن أن تصبح قناة سويس أخرى بالنسبة لعائداتها للإقتصاد القومى بالعملة الأجنبية .

الأسواق الحرة فى مصر لم يتم إلقاء الضوء عليها أمام جماهير الشعب المصرى إلا من خلال زيارات الرئيس مبارك لها عدة مرات بهدف تطويرها ودفعها لزيادة عائداتها بالعملات الأجنبية لصالح الخزانة العامة المصرية وأننى كواحد من بين الرجال المسئولين عن

الأسواق الحرة فى مصر أتيح له دون كثيرين أن يبدأ هذا النشاط منذ كان جنينا وحتى الآن أرى أن هذا النشاط مازال فى دور الطفولة وستستمر هذه المرحلة مالم تنظر للأسواق الحرة فى مصر نظرة مستقبلية قائمة على أساس دراسة وعلم وماتحتاجه إدارتها الحالية من دعم من الدولة لتحقيق الأهداف المرجوة .

وبصفة عامة أريد أن أقدم للقارئ لمحة بسيطة عن مفهوم الأسواق الحرة كنظام عرفته الدول الرأسمالية كما عرفته الدول الإشتراكية وإن تباينت سمات وطبيعة هذا النشاط من نظام لآخر .

وعادة يقوم نظام الأسواق الحرة على إقامة أسواق تجارية فى منافذ الحدود الدولية سواء المنافذ البحرية أو البرية أو الجوية وتخضع هذه الأسواق لنظم تختلف من دولة إلى أخرى خاصة فيما يتعلق بالرسوم التى تفرض على السلع بإعتبار أن عابرى الحدود بين الدول هم المتعاملون مع هذه الاسواق بالدرجة الأولى . أي ان الاصل فى نظام الاسواق الحرة هو توفير سلع فى اسواقها لعابرى الحدود اى انها فى خدمة المغادرين من السائحين فى كل دولة او المغادرين بصفة عامة لذلك فان اغلب الانظمة لاتضع قيوداً جمركية على مشتريات المغادرين للبلاد بإعتبار ان هذه المشتريات هى فى حقيقتها صادرات غير منظورة تحقق قيمة مضافة بالمفهوم الاقتصادى للسوق التى تتعامل فيها .

غير اننا نجد اختلافا بين انظمة الدول المختلفة فيما يتعلق بالاسواق الحرة فى صالات الوصول اى للقادمين الذين سيدخلون البلاد وهنا نجد اوضاعا مختلفة وقيودا جمركية متباينة من نظام الاخر بعضها متساهل والبعض يفرض قيودا على درجات متفاوتة خاصة فيما يتعلق بقوانين النقد التى تختلف قواعدها من دولة لأخرى .

وتشترك الاسواق الحرة العالمية فى طبيعة واحدة وهى غالبية المنتجات الوطنية المتميزة على السلع المعروضة فى المنافذ المتخلفة بأعتبار هذه المنافذ مطلة على العالم الخارجي .

وعلى ضوء خبرتنا الخاصة فى مجال الاسواق الحرة أرى ان مفهوم الاقتصاد للاسواق الحرة يختلف بين الاسواق الحرة للدول المتقدمة والاسواق الحرة للدول المختلفة لان الاسواق الحرة فى الدول المتقدمة ليست فى حاجة الى الاسواق الحرة كقيمة اقتصادية مؤثرة

على اقتصادياتها خاصة وان معظم السلع المنتجة فى البلدان المتقدمة غزت اسواق العالم المختلفة اما فى البلدان النامية فاننى ارى ان للاسواق الحرة أهمية خاصة جدا يجب الاهتمام بها وخاصة للاستفادة من كم العاملين بالخارج من ابناء هذه الدول واهمية استقطاب دخولهم الى داخل بلادهم للمشاركة فى عملية الانماء الاقتصادى وهو مانراه هاما بدرجة بالغة فى المرحلة القادمة بالنسبة لمصر وحاجتها للعملات الاجنبية من اجل تحقيق التوازن الاقتصادى المطلوب .

ويعتبر نشاط الاسواق الحرة فى مصر نشاطاً حديثاً نسبيا بدأ مع انشاء اول سوق حرة بالمطار الدولى تابع للشركة المصرية الوطنية للطيران (مصر للطيران) وسوق حرة اخرى بميناء الاسكندرية ثم سوق حرة فى مدينة بور سعيد تحت مسمى (محلات سيمون ارزت) اعتمدت على تموين السفن العابرة ببور سعيد وهو النشاط الذى انتقل للقاهرة بسبب ظروف التهجير فى مدينة بور سعيد عام ١٩٦٩ وافتتاح اول فرع لخدمة الدبلوماسيين بالقاهرة وفرع اخر فى الاسكندرية لخدمة نشاط الدبلوماسيين فى مصر .

وتنازع نشاط الاسواق الحرة عدة جهات ادارية مصرية مختلفة مثل شركة بيوت الازياء الراقية ومثل شركة مصر للطيران (مؤسسة مصر للطيران ذلك الوقت عام ١٩٧٤) ثم تطور الأمر لاول شكل منظم فى مصر للاسواق الحرة عندما صدر قرار تأسيس شركة مستقلة اسمها شركة مصر للاسواق الحرة مهمتها انشاء الاسواق الحرة فى المنافذ البحرية والبرية والجوية وداخل المدن وكان يمكن لهذا القرار اذا احسن متابعته ان يخدم الاسواق الحرة بشكل يحقق منها عائدات ضخمة للخزانة المصرية إلا أن التضارب وخدمة الأغراض الخاصة كان هو الغالب فسلخ نشاط الأسواق الحرة بالمطارات واختصت به شركة مصر للطيران وأصبح نشاط شركة مصر للأسواق الحرة قاصر على الموانى البحرية والدبلوماسيين .

وأود أن أوضح أن العالم ككل يضم أكثر من خمسمائة سوق حرة تحقق مبيعات سنوية حوالى ستة مليار دولار نصيب الأسواق الحرة المصرية سواء من خلال الأسواق الحرة لمصر للطيران أو لشركة مصر للأسواق الحرة نصيبها رقم قريب من الصفر وهكذا ينعكس فشلنا فى مصر فى الإستفادة من نظام الأسواق الحرة رغم كل المحاولات التى بذلت

حتى الآن لدفع مسيرة هذا النشاط كما سيتضح فيما بعد .

رغبة فى تشجيع المصريين العاملين فى الخارج على الشراء من الأسواق الحرة فى مصر تقرر منحهم نسبة إعفاء على مشترياتهم من الأسواق الحرة فى حدود مبلغ مائتى جنيه مصرى وهى بالطبع نسبة غير مؤثرة طبقا لإعتقادى والدليل أن آلاف الأطنان من الأجهزة المستوردة ولوازم المنزل ترد صحبة المصريين العائدين من الخارج فلو أن هناك ميزة حقيقية لما تردد العائد فى إرجاء الشراء لحين عودته لمصر وشرائه من الأسواق الحرة المصرية للإستفادة من مزايا معينة سأقترحها فيما بعد ، ولكن هل يدرك المسئولون فى مصر أن ماحققته مصر للطيران ومصر للأسواق الحرة كأسواق حرة فى السنة الأخيرة هو رقم لم يجاوز أربعين مليون دولار لهما سويا وهو رقم هزيل لايحقق فى رأيى هدف الأسواق الحرة بمفهومها الإقتصادى كعامل مؤثر فى الإقتصاد المصرى .

والمرجو أن ننتبه جميعا الى حقيقة أساسية

أن الأسواق الحرة فى مصر تعتمد إعتمادا حقيقيا على نظرية القيمة المضافة فهذه الأسواق لم تحصل على قرش واحد من الخزانة العامة كرأس مال تبدأ به بل إعتمدت على سياسة التمويل الذاتى بإستيراد السلع الأجنبيه وذلك من خلال تسهيلات فى السداد وبيعها وسداد قيمتها بعد إنقضاء فترة التسهيلات مما حقق تراكما رأسماليا نجده واضحا مع شركة مصر للأسواق الحرة التى لم تزد قيمة أصولها المنقولة عند تأسيسها عن سبعمائة ألف جنيه مصرى نجد أنها برغم عدم وجود إمكانيات متاحة وصلت اليوم إمكانيات الموارد المتاحة لديها ارقم يزيد عن الخمسين مليونا حققتها طبقا لسياسة التمويل الذاتى كما ذكرت ،

والتساؤل الآن كيف يمكن أن تحقق الأسواق الحرة فى مصر هدفها النهائى وهو خدمة الإقتصاد المصرى خدمة فعالة ومؤثرة ؟

يمكن أن أضع تصورا أو مجموعة من المقترحات لمن يهمه أمر إقتصادنا المصرى وبعيدا عن فلاسفة إستنباط العقد وتعطيل الركب .

١ – توفير الأسواق الحرة لأفضل تشكيل من السلع العالمية المتميزة جنبا الى جنب مع أفضل إنتاج مصرى من السلع المشابهه ، وهنا تصبح الأسواق الحرة عامل توازن من خلال أسعار متميزة للمنتجات المحلية المتمتعة بحماية الدولة أمام هذه السلع

المستوردة ويصبح الفارق السعرى جليا وواضحا كما أن ذلك سيدفع المنتج المحلى دائما الى تقديم الأجود لأنه ليس محتكرا ولأنه يحاول منافسة سلع مثيلة بالأسواق الحرة .

٢ - أن تقوم فلسفة الأسواق الحرة على أساس أن المواطنين المصريين العاملين بالخارج يرغبون دائما فى إقتناء أفضل السلع الأجنبية العالمية ولامناص من حملها معهم أثناء عودتهم من الخارج طالما غير متوفرة فى أوطانهم ، لذلك يصبح هدفا جوهريا من نشاط الأسواق التى توفر هذه السلع ببدائل عديدة وفرص إختيار ضخمة تحقق للعائد رغبات فى داخل بلده بدلا من مشقة وعناء حمل إحتياجاته من خارج مصر وسداد ثمنها للتاجر خارج مصر دون أن تستفيد منها مصر فى حالة شرائه من الأسواق الحرة فيها .

٣ - القناعة المطلوبة فى إستيعاب الحقيقة الأكيدة أننا حاليا لانقدم ميزة للعائدين عند شرائهم من الأسواق الحرة لأن إعفاء فى حدود مائتى جنيه لايساوى شيئا عند العائد الذى يحمل معه مشتريات تصل الى عدة آلاف من الجنيهات .

٤ - إصدار قانون خاص بالأسواق الحرة يحدد أن الأسواق الحرة هى مؤسسة وطنية أو هيئة وطنية تضم عدد من القطاعات هى قطاعات خدمة المطارات وقطاعات خدمة المنافذ البحرية وقطاعات خدمة المنافذ البرية وأن تكون تبعية هذه الهيئة أو المؤسسة الى رئاسة مجلس الوزراء وأن يكون من صلب هذا القانون حق هيئة أو مؤسسة الأسواق الحرة إستيراد أو تصدير أى سلع بالعملات الأجنبية دون سريان أى قوانين خاصة بالتصدير أو الإستيراد أو النقد عليها من منطلق أنها جهة جباية للدولة بالعملات الحرة مثل البنك الذى يحصل منك أى مبالغ بالعملة الأجنبية ولايسألك عن مصدرها كذلك فان الشراء من الأسواق الحرة إيداع لعملة أجنبية فى يد الأفراد الى خزانة الدولة لذلك فلا يجوز أبدا أن يسأل عن مصدر العملة فى الأسواق الحرة كما هو متبع حاليا وهو أمر يعكس مرونة ووعى فكرى من القائمين على الأمر الإقتصادى .

٥ - يجب أن يفرق قانون الأسواق الحرة عند صدورة بين الفئات التى تتعامل مع الأسواق التى فى مصر وهى :

أ) مغادر خارج البلاد ويتم الشراء من الأسواق الحرة بدون قيود عليه طالما أن الحصيلة عملة أجنبية يتم إجتذابها لمصر قبل خروجه منها .

ب) دبلوماسى أو خبير أجنبى ويقوم بالشراء من خلال قوانين الإعفاء المنظمة لذلك طبقا لأسلوب المعاملة بالمثل بين الدول .

ج) عائد من الخارج ومواطن مقيم داخل مصر

أما العائد من الخارج فلنا معه وقفة

لو إفترضت أن العاملين المصريين فى البلاد العربية والأجنبية فقط ثلاثة ملايين مصرى وهو بالطبع رقم يقل عن الواقع لكننى على سبيل تقديم مثال يفترض أدنى الأرقام الممكنة .

ثلاثة ملايين مصرى سيعود منهم سنويا لزيارة مصر مرة واحدة فى السنة مليونين فقط ونفترض أن مليون فقط منهم سيشترى من الأسواق الحرة إحتياجات على الأقل من الأجهزه المنزلية التى يحملها معه فى المطارات والموانى وهو عائد كالغسالة والثلاجة والراديو والسجادة والمروحة والكاسيت والستاير . . . الخ ولنفترض أن كل هذه السلع تعادل ثلاثة آلاف دولار مشتريات فقط لكل منهم من السوق الحرة فستجد أن حصيلة المبيعات تساوى ثلاثة آلاف مليون جنيه . . وصدقونى أننى لا أغالى . . وصدقونى أن المصريين جميعا يفضلون ألف مرة أن يشتروا من داخل الأسواق الحرة فى مصر وليس مطلوبا سوى الحافز لهم والحافز يجب أن يكون مادى وبلغة التجارة أعطنى أعطيك ووسائل الشراء والبيع لاتدخل فيها الإعتبارات والشعارات الوطنية فقط المطلوب أن نتعامل مع المصريين العائدين بلغة التجارة وليكن المبدأ تعال إلى مصر وأشتر كل لوازمك من الأسواق الحرة وتمتع بتخفيض خمسين فى المائة على الرسوم الجمركية .

بمعنى أن يصدر تشريع واضح فى القانون المقترح للأسواق الحرة ينص على الآتى :

" يمنح المشترين من الأسواق الحرة فى مصر إعفاءا جمركيا فى حدود خمسين فى المائة على أى مشتريات غير متكـررة لهم " .

وطبقا لهذا المفهوم فلو أننى إشتريت من خارج مصر ثلاجة وغسالة وبوتاجاز فإن الجمارك ستحصل منى على رسوم جمركية كاملة طبقا للتعريفة الجمركية السارية والتى يجب أن تطبق بحـزم دون مجـاملات لأى شخص .

أما إذا إشتريت هذه الأجهزة وأى مشتريات أخرى من الأسواق الحرة فإننى سأسدد نصف الرسوم الجمركية فقط . .

وصدقونى أن هذا هو الأسلوب الوحيد لإستقطاب مشتريات المصريين الى داخل مصر من خلال الأسواق الحرة بدلا من توجيهها الى التجـار خارج مصر فى أى بلد من البلدان .

وبهذا الأسلوب ومع مزيد من إحكام السيطرة على المنافذ الجمركية فى مصر بحيث لايسمح بأى مجاملة أتوقع مليار جنيه سنويا إيرادات للأسواق الحـرة .

أما بالنسبة للمواطن المقيم داخـل مصر

فإن مفهومى بالنسبة له مثل مفهوم البنوك التى تحصل على العملة الأجنبية من المواطنين وتقوم بإستبدالها بالجنيه المصرى دون السؤال عن مصدر العملة . . أو ليس من الصائب أن تكون أكثر تحضرا فى تفكيرنا فنسمح للمواطن بدون قيود أيضا بالشراء من الأسواق الحرة وبدون سؤال عن مصدر العملة لإمتصاص مالديه من عملات أجنبيه بدلا من إستخدامها فى أغراض أخرى أو الإتجـار فيها وذلك مقابل ميزة بسيطة لإغراء المواطن على توجيه العملة الأجنبية لديه فى إتجاهين فقط الأول الإستبدال فى البنوك الوطنية والثانى الشراء بها من الأسواق الحرة بإعتبارها خزانة عامة أيضا والميزة التى يمكن أن تغرى المواطن لا أتصور أنها يجب أن لاتقل عن إعفـاء فى الرسوم الجمركية بنسبة عشرين فى المائة على كافة مشتريات المواطن وهذه وسيلة عملية لجذب وإمتصاص العملة من أيدى المواطنين فى سبل مشروعة ومفيدة للإقتصاد القومى خاصة وأن طبقة الإنفتاحيين الجديدة فى مصر لديها سيولة ضخمة فى متناول يدها بالعملة الأجنبيه وهى طبقة تحب الإقتناء وقد لايرغبون فى وضع أموالهم فى البنوك حتى لايفتضح أمر ثرواتهم لذلك يفضلون تحويل هذه الثروة الى سلع ذات

قيمة متزايدة كالتحف النادرة كما هو معروف مثلا من التحف الصينية من لاكروكروازونيه وجـات وبارافانات وتماثيل نادرة وخلافها من أنواع السجـاد النادر وغيرها من المنقولات ذات القيم المتزايدة ومن الطبيعى أن تكون سلع الأسواق الحرة حيث الشراء بدون السؤال عن مصدر العملة مجـالا قانونيا لإمتصاص كم كبير من هذه العملات الأجنبية لصالح الخزانة العامة وهى سلع توفرت حديثا بشركة مصر للأسواق الحرة بفضل إدارتها الجديدة التى تحاول شق الطريق بكل مثابرة وبدون ملل أو نفـاذ صبر .

إننـى لا أقـدم إقتراحـات غير موضوعيـة أو غير منطقية ولكنها إقتراحات عملية وعلمية ، فقط إنظروا الى الأبعاد البعيدة لتنفيذ مثل هذه الإقتراحات وأثرها على حل مشكلة مصر الإقتصادية .

٦ - أما بالنسبة لمشكلة البطالة فى مصر فإنه لاحل لها سوى الإتجـاه للتصنيع المنزلى الذى يتم تجميعه بعد ذلك من خلال شركات أو مؤسسات محدودة تقوم بتجميعه وهو حل جذرى لمشكلة البطالة فى مصر وتحقيق إنتاج من خلال أيدى عاملة لاتعمل حاليا .

والمطلوب إنشاء شركات لإنتاج سلع معينة مطلوبة للداخل والخارج وتقوم هذه الشركات بتوفير الآلات اللازمة للإنتاج المجزء لهذه السلعة وكذلك خاماتها اللازمة للإنتاج ويتم تقدير قيمة الآلات والخامات وتحديد مدة طويلة الأجل لسداد هذه التكلفة خصما من قيمة الإنتاج ويتم توزيع هذه الآلات على الأسر وبهذا نخلق أسرة صناعية بمفهوم جديد حيث أن أنجال هذه الأسرة سينشأون فى أحضان الأله أو المعدة التى تعمل فى منزلهم وتأتى لهم بلقمة العيش وهو الأسلوب السيكولوجى الوحيد الذى يمكنه أن ينقل الفكر المصرى الى إستيعاب الفكر الصناعى كما حدث فى اليابان التى إنتشر فيها تصنيع القطع الصغيرة المكونة للإنتاج النهائى على أجـزاء صغيرة فى المنازل ثم تجميعها فى المصنع الأم .

إن هذا الموضوع يجب النظر اليه بعقلية متفتحـة بدءا بالعمالة التى تزيد عن الحاجة بوحدات الحكومة والقطاع العام ثم بالعمالة التى لم تجـد عملا حتى الآن خاصة وأننى لا أؤمن بإلتزام الدولة بتعيين الخريجين فهم أشبه بالأنسات اللاتى

ينتظرن فى بيوتهن فى إنتظار قدوم فارس الزواج فإذا تأخر لم يزد دورهم عن النحيب والصراخ دون أن يقدمن شيئا نافعا على الإطلاق .

لذلك فإن إنشاء صناعات جديدة بأسلوب تجميع الأجزاء كما سبق إيضاحه كفيل بحل مشكلة البطالة وإنتاج سلع صناعية وزراعية وتجارية وغيرها وهو امر يتطلب اعداد دراسة جيدة للاحتياجات والاهداف والتسويق حتى تكون صناعات قائمة على طلب يجدد نفسه تلقائيا من أجل دفع مسيرة الانتاج .

وبعد عزيزى القارىء فانه يبقى لى تعليق بسيط طالما اننا بصدد البحث عن هويتنا الاقتصادية المفقودة وهو ان الانسان المصرى أقصد انا وانت مطلوب من خلال بحثنا عن الهوية الاقتصادية المفقودة إن يكون دليلنا هو الرضى والقناعة حتى ييسر الله لنا امورنا وأجد أجمل ما اقرأه معكم عن حلاوة القناعة والرضى ما جاء بقصيدة الشاعر مصطفى حمام :

علمتنى الحياة أن أتلقى ... كل ألوانها رضا وقبولا

ورأيت الرضا يخفف أثقالى ... ويلقى على المآسى سدولا

والذى ألهم الرضا لا تراه ... أبد الدهر حاسدا أو عذولا

أنا راض بما كتب الله ... ومزج إليه حمدا جزيلا

أنا راضى بكل صنف من الناس ... لئيما ألقيته أو نبيلا

لست أخشى من اللئيم أذاه ... لا ولن أسأل النبيل فتيلا

فسح الله فى فؤادى فلا أرضى ... عن الحب والوداد بديلا

فى فؤادى لكل ضيف مكان ... فكن الضيف مؤنسا أو ثقيلا

ضل من يحسب الرضا عن هوان ... أو يراه على النفاق دليلا

فالرضا نعمة من الله لم يسعد بها ... فى العباد إلا قليلا

والرضا آية البراءة والإيمان ... بالله ناصرا ووكيلا

علمتنى الحياة أن لها طعمين ... مرا وسائغا معسولا

فتعودت حالتيها قريرا ... وألفت التغيير والتبديلا

أيها الناس كلنا شارب الكأسين ... إن علقما وإن سلسبيلا

نحن كالروض نضرة وذبولا ... نحن كالنجم مصعدا وهبوطا

نحن كالظمأ صادقا وكـــــذوبا   نحـن كالحظ منصفـا وخذولا

قـد تـرى الحيـاة عذبى فتبدى   سخريات الورى قبيلا قبيــلا

فـأراها مواعظـــا ودروســـا   وو راها سـواى خطبا جليلا

أمعن الناس فى مخادعة النفس   وخلـــوا بصائـــرا وعقــولا

عبـدوا الجـاه جاهــا ومــالا   ليـس الا مثرثــرا مخبــولا

واذا غـادة تجلـت عليهــــم   خشعــوا او تبتلـــوا تبتيــلا

وتلـوا سورة الهيـــام وغنوها   وعاقـــوا القـــرآن والانجيــلا

لا يريدون أجلا من ثواب الله   ان الانسـان كــان عجــولا

فتنـة عمت المدينـة والقريــة   لـم تعد ، فتية ان كان رســولا

واذا ما انبريـت للوعظ قالــوا   لست ربا ولابعثت رسـولا

أرأيت الذى يكـذب بالديـــن   ولا يرهـب الحساب الثقيلا

اكثر الناس يحكمون على الناس   وهيهـات ان يكونـوا عــدولا

فلكـم لقبـوا البخيـل كريمـــا   ولكم لقبـوا الكريـم بخيــلا

ولكـم اعطـوا الملح فأغنـوا   ولكم اهملوا العفيف الخجولا

رب عـذراء حرة وصموهـــا   وبغـىّ قـد صوروهـــا بتــولا

وقطيـع اليديـن ظلما ولـص   اشبـع النـاس كفـه تقبيـــلا

وسجيـن صبـوا عليه نكالا   وسجيـــن مدلـــل تدليــــلا

جل من قلـد الفرنجـة منـا   قـد اساء التقليد والتمثيــلا

فأخذنا الخبيث منهـم ولـم   نقبس من الطيبات الا قليـلا

يوم سن الفرنج كذبه ابريل   غـدا كـل عمرنــا ابريـــلا

نشروا الرجس مجملا فنشرناه   كتابـا مفصــلا تفصيـــلا

علمتنى الحياة ان الهوى سيل   فمن ذا الذى يـرد السيـولا

ثم قالت :والخير فى الكون باق   بل أرى فيه أصلا أصيــلا

ان ترد الشر مستفيضا فهون   لا يحب الله البئوس الملـولا

ويطول الصراع بين النقيضين   ويطوى الزمان جيلا فجيـلا

وتظـل الايام تعـرض لونيهـا | علـى النـاس بكـرة وأصيـلا
فذليل بالامس صـار عزيـزا | وعزيـز بالامـس صـار ذليـلا
ولقـد ينهـض العليـل سليمـا | ولقـد يسقـط السليـم عليـلا
رب جوعان يشتهى فسحة العمر | وشبعـان يستحـث الرحيـلا
وتظـل الارحام تدفع قابيـلا | فيـردى ببغيـه هابيـلا
ونشيد السلام يتلوه سفاحـون | سنـوا الخـراب والتقتيـلا
وحقوق الانسان لوحة رسـام | اجـاد التزويـر والتضليـلا
صـور ماسرحـت بالعيـن فيها | وبفكرى الاخشيت الذهـولا
قال صحبى تشكـو جروحـا | اين لحن الرضا رخيما جميلا
قلت اما جروح نفسى فقد عودتها | بلسـم الرضـا لتـنزولا
غير ان السكوت عن جرح قومى | ليس الا التقاعـس المـرذولا
لست ارضى لأمة انبتتنـى | خلقا شائنا وقـدرا ضئيـلا
لست ارضى تحاسداً أوشقاقا | لست ارضى تخاذلا او خمولا
انا ابغى لها الكرامة والمجـد | وسيفا على العدا مسلـولا
علمتنى الحياة انى ان عشت | لنفسى اعش حقيراً هـزيلا
علمتنـى الحيـاة انـى مهمـا | اتعلـم فـلا ازال جهـولا

الفصل الثالث

مصر والهوية الإدارية المفقـودة

مصر والهوية الإدارية المفقـودة

تعانى مصـر اليـوم مـن مشكلـة جوهريـة أرى أنهـا ذات تأثير مباشر وخطير على مسار القضية الإنتاجية ألا وهى مشكلة الإدارة وأننى لا أناقش هنا الإدارة بمفهومها الأكاديمى وإنما أنظر اليها من زاوية معينة هى زاوية إنعدام الإرادة لدى مالكى زمام الإدارة على مستويات عديدة تشمل الكم الأعظم من رجـالات الإدارة .

وإننى أتساءل اليوم عن كيفية إستعادة الهوية المفقودة للرجل المسئول عن أى موقع فى أى مكان حين تجلس اليه فيحدثك بالساعات عن الشرف والمبادئ وعن النزاهة والأخلاقيات وينتقد لك الدنيا كلها وينصب من نفسه حاكما وقاضيا وجـلادا وفيلسوفا ثم تجده هو نفسه نفس الشخص الذى يلهث نحو الأكبر منه سلطة أو الأعظم منه نفـوذا فيكفيه منه جلسـة على مائدة طعام بدعوة من أحد أصحاب المصالح .

ثم ماذا نفعل لنستعيد هوية مسئول كبير آخر ينهب نهبا منظما من خلال عمولات الصفقات التى تبرمها مؤسسته أو هيئته أو شركته تجده مع بدء كل عام يصرف بونات صغيره للحبايب وهى بونات تحمل أرقاما وعليها توقيع معاليه وتذهب بالبونات الى الجواهرجى فى شارع سليمان أو غيره والجواهرجى يعلم تماما معنى رقم البون وتوقيع البيه الكبير على البون يعنى صرف الهدية المتفق عليها تحت هذا الرقم فقد تكون خاتما ذهبيا بخمسمائة جنيه وقد تكون من السوليتير بعدة آلاف وفقا لأهمية الشخص المهدى اليه ومدى مايقدمه من مصالح أو مايتستر عليه من إنحرافات .

فإذا ماذهبت الى منزل البيه المحترم سواء منزل الزوجة الأولى أو الثانية وهى قصور بالطبع تجده لايضيع وقت العمل وإنجاز المصالح فالفاكس موجود والتلكس موجود والتليفون المرئى موجود .

وهو فى الحقيقة من المسئولين المتواضعين جدا فإذا نزل فى زيارة الى فرانكفـورت أو ميونخ بألمانيا الغربية فإن له سكنا خاصا وسيارة خاصة منعا من الحاجة للغرباء ونفس الشىء فى الولايات المتحدة الامريكية وهولندا فكيف بالله عليكم يمكن ان نستعيد هوية هذا

المثال او غيره من كثيرين ترعرعوا على مصاطب الجبن المدعوم بالديدان فنسوا ماضيهم عندما اتيحت لهم فرصة النهب والسلب .

كيف نستعيد الهوية لمثل هؤلاء النكرات التى تربعت على عرش مواقع ادارية كبرى ولاتتعجب من اجادة هذه الفئة للحديث عن الشرف خاصة فى تجمعاتهم الخيرة التى عرفتها مصر على ايدى اصحاب المصالح من هؤلاء سواء تجمعات النوادى او الجمعيات الخاصة كجمعية تهليب المصالح وجمعية تشابك المصالح وجمعية إدارة عمولات النهب والسلب وجمعية تسليك المسائل من أجل الحصول على صفقات جديدة .

هذه الأندية الجديدة التى تباشر أنشطة من نوع خاص جدا هو تجميع اللصوص أقصد أصحاب المصالح وحاملى عقود العمولات بالقنطار سواء من أصحاب النفوذ الحاليين أو السابقيين وهم جميعا سواء فالغالبية العظمى لعبت لعبتها الكبرى ووضعت أيديها على التركة مبكـرا ومن ثم فالمصالح تربط الجميع ولذلك يجب أن تضمهم مجتمعاتهم الخاصة للحفاظ على ثرواتهم المنهوبة وهم من خلال هذه الشباك او اللوبى لامانع لديهم من تعيين مائة او مائتين في المواقع المختلفة لارضاء المسئولين هنا وهناك فى المواقع المؤثرة المختلفة .

ومن الطبيعى أنك إذا قدمت خدمة الى فلان بيه مثـلا ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ بتعيين إثنين أو ثلاثة مثلا من أقربائه أو أحبائه فإنه لن يتأخر عنك فى إنهاء أى موضوع خاص بك يمر أمامه ومهما كان مخالفا أو شاذا .

كيف أيها الساده نعيد الهوية المفقودة للمسئول الكبير الذى يعشق الأعمار الدنيا من الفتيات فلا مانع من هذا أو ذاك من زبانيته أن يعد له المجالس ليرتوى بنار الزنا وكؤوس الخمر الملعـون .

ثم هذه المرأة الفاجـرة التى تمثل مكانا إداريا مرموقا كيف نعيد لها هويتها المفقودة وهى تحدثك عن الوجبة الدسمة التى إحتوت عليها المائدة التى أعدت خصيصا على شرف معالى الوزير الفلانى واللواء العلانى ورئيس مجلس الإدارة الفلانى ويحدثك باعجاب عن إنهاء المسائل على العشاء فيالمصيبـة الإدارة فى مصر إذا وصل الحال ببعض مسئوليها أن يكون الثمن دائما يبدأ بدعـوة على مائدة أو دعـوة على سهرة ساقطة لنساء ساقطات أو هدية بألف أو أكثر أو غيره حسب نوع الخدمة المطلوبة أو تسليك للمواضيع بتعيين عدد من

العاطلين لهذا أو ذاك من ذوى النفوذ المتصل بصاحب قرار التعيين ثم لامانع من الرشوة المستترة بالتعيين كمستشار بعض الوقت وهى بدع لا أول لها ولا آخر إخترعها لوبى المنتفعين بكراسى الإدارة على حساب الأم العظيمة مصر .

صدقونى أننى لا أغالى فالنماذج التى صادفتها وتصادفنى ومن حولى بحكم وظيفتى الملعونة التى ترغمنى على أن أكون إلى جانب نماذج من هؤلاء السوقة الذين تجد بعضا منهم إذا لم تتذكره بين الحين والآخر بهدية أو مائدةشهية يغضب منك فإذا أصابه ألم بسيط وتافه حزن إذا لم تسأل عنه الدنيا من أصحاب المصالح وغمروه بهداياهم فإذا أصابك والعياذ بالله أى مرض لاتجدهم أبدا لديهم المروءة للسؤال عنك فأنت مطلوب فقط طالما هناك نفع من ورائك فإذا ما إلتقيت بهم بعد المنحة يمطـون الشفاه تأثـرا لما حدث لك بأثر رجعـى .

وآخر من هؤلاء حاصل على الدكتوراه فى الحديث عن الشرف نفذ الى موقعـه بلا أى شئ سوى أنه من خريجى مدرسة المرتزقة السياسية فى مصر يحدثك عن الشرف مع كل لفته وينسى أنه طريد سمعه ملوثة سبقته عن أمواله المنهوبة التى يهربها بأسماء أهله وذويه فى الريف البعيد .

وآخر يدعى الفقر ليلا ونهارا ثم تفاجـئ بأنه يملك ثروة تقترب من نصف مليون وآخر يدعى العفـة والشرف وهو مستعد للعق حذائك إذا دبرت له وجبة طعام دسم وهو من مدعى الفقر ولذلك ورغم فقره الذى يدعيه إستطاع بناء فيللا ضخمة ويملك هو وأبنائه الأربعه كل منهم سيارة خاصة فياله من فقر أيها السـاده .

عـزيزى القـارئ . .

إننى ماقدمت لك صورة لبعض النماذج من رجال الإدارة فى مواقع كثيرة أرى أنهم سر النكبـة التى أصابت بعض وحدات القطاع العام والأجهزة الحكومية والدليل على ذلك أن الوحدات الناجحه فى مصر نجحت بالشرفاء من رجال الإدارة فيها .

وهنا أحاول معك أن أصل الى جذور قضية فقد الهوية الإدارية لهؤلاء الضالين بحثا عن الأسباب وسبل العلاج من أجل مصر أولا ومصر أخيـرا .

إن هذه القضية ليست وليدة اليوم أو وليدة الصدفة وإنما هى قضية تمتد جذورها الى ظروف التغير فى المناخ الفكرى والثقافى فى مصر أعقاب عام ١٩٥٢ بفضل التجمعات السياسية الجديدة المسماه بمسميات مختلفة سواء إتحاد إشتراكى أو أحزاب أو ماشابه ذلك من تنظيمات ووحدات تنظيميه تضع مجموعة شعارات ١٩٥٢ دستورا لها تحتضنه جنبا الى جنب مع بعض الأقوال الدينية من أجل المتاجرة بها فى اللقاءات والخطب ثم تطورت هذه التنظيمات فتحولت الى جماعات تجسس تتفرغ كل منها للتجسس على الآخر كل يبغى الإطاحة بالأخرى للإنفراد برضى الحاكم وبالتالى الحصول على مزايا ومنح أكثر من بلاط السلطان .

هذا الصراع من أجل الظفر بحظوة السلطان كان دائما مستلهما من إعتناق فلسفة كاذبة هى حماية مقعد السلطان تحت إسم أو مسمى هو حماية النظام رغم أن معظم الذين يتاجرون بذلك يتمنون لو أطاحوا بالسلطان نفسه ليس من أجل نظام أو غيره يدافعون عنه بقدر ماهو من أجل تحقيق مصالحهم الشخصية .

وهكذا تحول المجتمع أعقاب ١٩٥٢ وحتى الآن الى صورة جديدة تماما تختلف عن مجتمع ماقبل ١٩٥٢ فبعد أن كان مجتمع ماقبل ١٩٥٢ يطلقون عليه مجتمع النصف فى المائة أى الإقطاع والمسميات المختلفة التى أطلقت إنقسم المجتمع بعد ١٩٥٢ وحتى ١٩٦١ الى شرائح جديدة الأولى هى شريحة الطبقة الجديدة الحاكمة ولست هنا بصدد شرح مآسيها أو محاسنها إن وجد .

وشريحة أخرى هى زبانية التنظيمات السياسية المصطنعة أو قل الوهمية التى أفرزتها الطبقة الحاكمة لحمايتها من خلال التجسس كل على الآخر وهى طبقة إرتضت لنفسها أن تلفق وتزور وتكتب التقارير الكاذبة الملفقة من أجل أن تلعق أطباق الحكام بعد كل طعام .

وشريحة أخرى هم العمال البسطاء فى المصانع والمزارع الذين صدقوا الشعارات وهتفوا بها ولها دون أن يعوا معانيها وأخيرا وصل بهم الحال الى الخروج فى سيارات للهتاف مقابل جنيهات قليلة توزع عليهم بعد كل هتاف .

وأخيرا شريحة رابعة هى طبقة تعيش تحت مستوى الفقر وهى طبقة لا تعليق لنا عليها الآن .

ثم تغيرت التركيبة الإجتماعية بعد وفاة عبد الناصر حيث أغرقت مصر فيما أسموه بعصر الإنفتاح حيث تحولت التركيبة الإجتماعية الى طبقة الحاكم الإله وبطانة المنتفعين من حوله ثم الطبقة الإنفتاحية الجديدة من رجال يدعون أنهم رجال أعمال على مستويات عديدة ومختلفة بدءا من أصحاب المكاتب الوهمية التى تحتال على جمع الأموال بأى سبيل وإنتهاء بتجار الخيروين على إختلاف مستوياتهم أيضا الثقافية والفكرية والإجتماعية .

ثم طبقة جديدة هى الطبقة الساقطة وهى التى تعيش من أجل متعة الطبقة الجديدة السالف الإشارة اليها تعيش على أنغام كئوس الخمر والمتعة الحرام من خلال أجساد الساقطات الباحثات عن الغنى السريع . . يلى ذلك طبقة فوق المتوسطة وهى تلك التى حاولت اللحاق بركب الإنفتاح ونجح بعض أبنائها فى إغتراف نصيبه من الغنيمة بكافة السبل وتقوقع الباقين مرتضين أنهم فى يسر يسير من العيش .

وأخيرا طبقة الكادحين أو السواد الأعظم للشعب والتى أصبحت مهمتها اليوم هى الجوع من أجل سداد ديون مصر التى سرقت نصفها الطبقات الجديدة لتعيش طبقة الكادحين تحت مستوى الفقر إذا كان له مسمى .

ثم جاء الرئيس مبارك للحكم ليتسلم معها تركة منكوبة بديون تجاوزت المليارات من الدولارات منها ماهو حقيقى ومنها ماهو مهرب بمعرفة المليازديرات والمليونيرات الذين إمتصوا عرق أهل مصر وخرجوا به الى خارجها وكأن الغرب فى حاجة الى مزيد من دماء الشرق .

أصبحت الحقيقة والحال الذى وصلنا اليه مؤلما للغاية وأصبح ضروريا أن يجتهد كل منا لمعرفة أصل الداء من أجل معرفة الدواء وحاولت أن أجتهد لمعرفة أصل الداء فلم أجد سوى سببا رئيسيا وجوهريا هو ماغرسه المستعمرون فى أنظمتنا من فلسفة أوتوقراطية مثلنا فى ذلك مثل الدول المتخلفة . . وعادة مايقوم النظام الأوتوقراطى على تأليه الحاكم والحاكم الذى أقصده هنا هو كل ذى سلطان بداية من أعلى سلطة ونزولا الى أدنى سلطة ومن الطبيعى أن يكون كل رجال الإدارة من ذوى النفوذ والسلطة على درجات مختلفة

حسب أوضاعهم الوظيفية وتصبح نكبة الإدارة ورجالها اليوم هو أتوقراطيتها وعملا بهذه الأوتوقراطية تجد أن المستوى الأدنى دائما منافقا ومرائيا ومنافقا للمستوى الأعلى حتى ينسى السلطان في لحظة أنه من البشر لأن أحدا من حوله لايقول له رأيا بصدق بل هو موافقة في كل الأحوال وتكون النهـاية أليمة إذ أن السلطان حين يصادفة إنسان صادق يقدم النصح المخلص والرأى الرشيد حتى ولو خالف رؤية السلطان فإن مافيا الكاذبين حول السلطان من أصحاب المصالح والمليارات المنهوبة سرعان ماتتحرك لقبر هذا الشاذ الذى كاد أن يقترب من السلطان بالحقيقة وسرعان مايصبح الصادق كاذبا وملفقا ومرتشيا ولايجد سوى الهـلاك في النهاية .

وهكـذا تحقق فينا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" لعـن الله قومـا ضاع الحق بينهـم ،
إذا سرق منهـم الغنى تركـوه ، وإذا
سرق منهـم الفقيـر اقامـوا عليه الحد "

فلماذا إذن لاتقيم الحد على من فاقـوا كل حـد ؟؟؟

ولماذا لانبدأ كأصحاب سلطة بأنفسنا ونطهـر أنفسنا ؟؟؟

لماذا لاتعود الأموال التى هربوها خارج مصر الى مصر مرة أخرى حتى لو إضطررنا الى مواجهة الواقع بسـن تشريع يسمح لأى شخص بالدخول لمصر بأى عمـلات أو ثروات لايرغب في سؤال عن مصدرها بشرط أن يسدد ٢٥ ٪ منها بإعتبارها ضريبة مزاولة نشاط حر في الخارج ومهما كـان !!!

لماذا لايتم إنجاز أى مصلحة اليوم إلا إذا كان لك إتصال بفلان أو بفلان هنا وهناك من عليه القوم ؟؟؟

لماذا لايكون لك نصيب في أخذ موقعـك المناسب في العمل ليحتله بدلا منك أحد أصحاب المقام الرفيع أو أتباعهم من المضـللين وحملة المباخر وأصحاب الشعارات والخطب والهتافات ؟؟؟

رغم كل ذلك .

فإننى لست متشائما واثق أن الحل واضح طالما تعرفنا على سبب الداء الذى

أصاب إرادة الإنسان فاتجهت به الإرادة نحو من يتصور أنه يأتى له بلقمة العيش أو يضمنها له بأى صورة من الصور .

مأساة كريهة أن يتخيل الإنسان أن رزقه معلق بإنسان آخر مهما كان منصبه أو مكانه .

مأساة أن تتسبب أوتوقراطية الإدارة فى تفريخ جيل يجعل الأصل هو مداهنة الموظف الصغير لرئيس القسم من أجل تقريره حتى يضمن الترقى أو يضمن صرف الحوافز ويصبح من يداهن أكثر أعظم كفاءة وحظا من الملتزم الذى يؤدى واجبه بكبرياء وبلا تلون أو إلتواء .

ويفعل مثله رئيس القسم مع مدير الإدارة والأخير يفعل نفس الشئ مع المدير العام والأخير يفعل نفس الشئ مع وكيل الوزارة ثم وكيل الوزارة مع وكيل أول الوزارة ثم وكيل أول الوزارة مع الوزير ثم الوزير مع رئيس الوزراء ثم الأخير مع قمة السلطان .

وتتحول القضية الى مأساة أصلها السلوك الفردى الذى يتغذى كل يوم بعقيدة وفلسفة تسيطر على حواسه وتصبح هى الأصل فى سلوكيات الإدارة الا وهى التحكم فى إرادة الأفراد من خلال لقمة العيش .

وهكذا تصبح لقمة العيش الحجة الكريهة الواهية التى ينطق بها الضعفاء وتهتز بها ثقة الأفراد فى ذاتيتهم ويتعلق الجميع بهذه الحجه كمبرر لإنعدام الهوية ويصبح الرأى الحر مفقودا أو تائها مع دوامة وضغوط الحياة .

وتزداد المصيبة أكثر مع كل ميزة يغترفها المنافقون وحملة المباخر على حساب الشرفاء والصادقين والمطحونين .

وهكذا تسلب إدارة الأفراد تدريجيا ويسلم الكثيرين منهم زمام إرادتهم الى قادتهم ويمسك كل بلجام الآخر طبقا لما يمتلكه الآخر من منفعه ومع مزيد من إنعدام الإرادة الفردية تنفصل الإرادة عن الإدارة فالقائد أو المدير أو صاحب السلطة لاقدرة له على شئ طالما هو أسير للأعلى منه سلطة ويصبح مسلوب الإرادة مع من يقوده أو يرأسه .

وتكون النتيجة على حساب القيم والمبادئ هى دائما التفكك والسلبية والضياع .

تفكك يأتى جـارفا كاندفاع النهر بفعل نهم أصحـاب المصالح الذين يضحـون بكل شئ من أجل مزيد من الكسب وسواء أكان كسبا حلالا أو حراما فهذه ليست بقضيـة .

أما الآخرين من حولهم فتصيبهم الحسرة بنوع من الحقد الذى يتحـول الى سلبية فهـم لاحول لهم ولا قـوة ينظـرون بحسرة على من يملكون كل شئ دون أن يتيسر لهم أى شئ .

وهكذا تتوقف حركة الإرادة الإنسانية من خلال الخلل الإجتماعى الذى يصاحب السلبية القاتلة فى مجتمعنا اليوم وتصبح القضية كيفية إستعادة الإرادة .

أو تصبح القضية هى كيفية إستعادة الهوية المفقـودة .

هذا فى رأيى هو محور القضية اليوم أو لنقل هو أصل بيت الداء لذلك فإنه والحال كذلك يصبح من الحتمى أن نستعيد بأى وسيلة إرادة مفقودة وهوية مفقودة .

كيف ؟؟

هذا هو السـؤال . . .

فمن أين نبدأ للوصول الى إجابـة ؟ ؟ ؟

إن أول سبيل إلى إستعادة الإنسان لإرادته يكون قادرا أولا على إدارة شئون نفسه قبل أن يدير شئون الآخرين .

والإنسان لايستطيع أن يدير شئون الآخرين إلا إذا كان لدية القدرة على إدارة شئون نفسه وهو لايستطيع إدارة شئون نفسه إلا إذا نظر بإمعان الى حقيقة الإرادة الإلهية للخالق العظيم جل جلاله وعظمت قدرتـه .

إن إرادة المولى عز وجل هى التى صنعت عظمة الكون بكل مافيه من تنوع وعظة فى كل شئ .

وكـان لإرادة الله عز وجل أن تخلق كل شئ بصورة من الصور وفقا لمشيئة الله العظيمة فهو قادر على كل شئ فعال لما يريد يقول للشئ كن فيكـون .

" إنما أمـره إذا أراد شيئا أن يقول له كـن فيكـون " **(يس : ٨٢)**

ويقول الله سبحانه وتعـالى :

" وربك يخلق مايشـاء ويختار ماكان
لهم الخيرة "   (القصص : ٦٨)

وبهذا يكون أمرا لاشك فيه أن فقد الفرد لإرادته أو إنكماش إرادته يعود بالدرجة الأولى الى درجة إيمانه بالخالق الواحد الأحد وعجـزه أو قدرته على فهم حقيقة وجوده فى الدنيا .

يقول الله سبحانه وتعالى :

" وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون "

فالأصل فى الوجـود على ظهر الدنيا هو عبادة الله الواحد الأحد ولا يمكن أن تنال منا الدنيا فيتوه الناس الى هذا الحد ويغيبون عن رشدهم فى أسطورتهم الكاذبـة البحث عن الرزق من خلال سلطان البشر متناسين أن أحدا غير الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يعطيك رزقا أو أن ينزع منك أو يمنحك روحا لأنها أمور تأتمر بأمر الواحد القهار .

لذلك فإن ماحدث من إصابة إحساس الناس بالغيبوية وسلب إرادتهم نابع من ضعف الايمان لأن ضعف إيمان الإنسان يحجب الحقيقة التى لاشك فيها وهى حرية الإرادة الإنسانية كما خلقها الله جـل جـلاله . . لقد منح الله سبحانه وتعالى الإنسان إرادة حرة ومسئولية غير خافية .

يقول الحق تبارك وتعالى :

" وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن
ومن شاء فليكفر "   (الكهف : ٢٩)

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

" قل ياأيها الناس قد جاءكم الحق من
ربكم فمن إهتدى فإنما يهتدى لنفسه
ومن ضل فإنما يضل عليها وما انا
عليكم بوكيل "   (يونس : ١٠٨)

وهذا يعنى ان ارادة الله وهيمنتها على كل الخلائق قد منحت إرادة الانسان القدرة على الاختيار بين الخير والشر وبين الضلال والهدى فالانسان اذا اراد لنفسه الفسق والضلال فسق وضل واذا اراد لنفسه الهداية اهتدى .

يقول الله سبحانه وتعالى :

" فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم والله لايهدى القوم الفاسقين "

(الصف : ٥)

ويقول الله تبارك وتعالى :

" قل ان الله يضل من يشاء ويهدى اليه من اناب الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب "

(الرعد : ٢٧ ـ ٢٨)

بهذا تصبح ارادة الانسان في اعتقادى هى اساس سلوكياته ان يشاء يجعلها نورا وان يشاء يجعلها فسقا وضياعا .

ويصبح السبيل الوحيد لاستعادة الانسان لارادته المفقودة أن يقوم أولا بواجبه نحو نفسه وتنفيذ مشيئة الله وحكمته فى خلقه الا وهى طاعة وعبادة الله واعتبار الحياة الدنيوية هى جواز مروره الى جنة عرضها السموات والارض حتى تصبح الحقيقة الوحيدة لاستعادة الارادة الانسانية هى العودة الى الايمان الصادق بالله تلك الصلة التى قطعها البشر بفسادهم وطغيانهم وكذبهم على انفسهم .

وقد يتسائل القارىء اذا كان من الغارقين فى بحر ملذات الدنيا ونفاقها وعبادة مباهجها واصنامها وكيف السبيل الى استعادة الارادة فقد يكون تيار الماديات اكثر عمقا فى داخله من تيار الروحانيات .

واقول لهذا القارىء .

تعالى معى نبحث فى قضيتك وقضية غيرك من عبدة الدنيا وصناع الحب الزائف .

تعال نناقش قضية الارادة وصناعة الارادة من خلال مفهوم الحب

وانا هنا لاأعنى بالحب ذلك الحب النابع من الهوى والمزاج وانما اعنى الحب بمفهومه الروحانى واقصد به ان يجتمع لقلوبنا أولا حب المحبوب الأوحد فلا محبة سوى محبة المحبوب الاعلى الذى لانحبه الا من اجله ووحدانيته فقط وبدون ان نشرك فى محبته أحدا .

ومأساوية دنيانا المعاصرة ان مانتعايش معه تحت مسمى حب انما هو ليس بحب على الاطلاق كما اعتقد شخصيا فليس هو اكثر من عشق للصور وشتان بين محبة الصور ومحبة الخالق .

ولايمكن ان يجتمع للقلب حب المحبوب الأعلى وعشق صور الدنيا الزائفة لذلك نجد ان عاشق الصور مناقد اختار سواد العيش وظلم نفسه وظلم غيره فقد أعماه العشق عن رؤية الحقيقة واعماه عشق الصور عن محبة الله فعاش فى محبة مصطنعة زائلة هى غاية فى الحقارة والدناءة كمحبة النساء ومحبة النفاق ومحبة كرسى السلطان لان ما هو دون محبة الله محبة حقيرة لان الانسان عبد لمحبوبه كائناً من كان .

يقول الشاعر :

أنت القتيل بكل من أحببته فاختر لنفسك فى الهوى من تصطفى

أى ان كل انسان منا ليس له الايمان بان الله هو مالكه ومولاه يصبح الهوى هو الاله المسيطر على كيانه ونواصيه .

يقول الله سبحانه وتعالى :

" افرأيت من اتخذ الهه هواه واضله
الله على علم وختم على سمعه وقلبه
وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه
من بعد الله افلا تذكرون "

(الجاثية : ٢٣)

اننى ابحث معك هنا عن الحب الروحانى الذى هو أول درجات صناعة الارادة الانسانية .

حب يحمل كل درجات الخضوع للمحبوب الاعلى والاوحد .

ويكون الحب دائما بدءا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه "

لذلك فان الله سبحانه وتعالى لما علم سبحانه وتعالى بشدة شوق اولياءه الى لقائه وان قلوبهم لاتهتدى دون لقائه ضرب لهم أجلا وموعد للقائه تسكن نفوسهم به .

ان اطيب العيش واحلاه هو عيش المحبين المشتاقين فحياتهم هى الحياة الطيبة ولا حياة للقلب أطيب ولا انعم ولا اهنأ منها .

ويشير الله سبحانه وتعالى الى تلك الحياة الطيبة فى قوله تعالى :

" من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو
مؤمن فلنحيينه حياة طيبة "

(النحل : ٩٧)

وليس المراد هنا بالحياة الطيبة عزيزى القارىء هو طيب الملبس والمأكل والمشرب والمرأه بل انت وانا نرى اليوم ان الله سبحانه وتعالى اذا منّ فى الدنيا على عباده بالنعم العظيمة كالصحة والستر والراحة النفسية والشجاعة والثقة بالنفس وغيرها من النعم الدنيوية فإنها مقدمة بإذن الله لنعم لاحصر لها فى الآخرة .

فلا يغرنك عزيزى القارىء بذخ ومظهرية حزب الزلكة أو حزب المليارات المهربة فى بنوك اوربا وامريكا ولا اصحاب المزارع فى كاليفورنيا ولا المشاريع فى شتوتجارت أو خلافه .

ولايغرنك المناصب المسروقة التى يجلس على مقاعدها سارقى الصولجان ولنتأكد من ان الله سبحانه وتعالى قد ضمن لكل من عمل عملا صالحا ان يحييه حياة هانئة وهو جل جلاله لايخلف وعده ابدا .

البداية أذن نبذ النظرية الدنيوية من حولنا لما فيها من غش وكذب وضلال ولنقبل على مرضاة الله وحبه فاذا اجتمع فكرنا وقلبنا على ذلك كان ذلك اول خيط من خيوط صناعة الارادة الانسانية التى تقوم على حب الخالق والشوق الى لقائه وعدم الخوف الا منه .

فاذا صمتنا اليوم على سوء الاحوال من حولنا وفساد الدنيا فليكن سكوتنا سكوتا بالله وان نطقنا فلننطق بالله وان سمعنا فلنسمع بالله وان ابصرنا فلنبصر بالله .

يقول صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى :

" ما تقرب الى عبدى بمثل اداء ما افترضت عليه ولايزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وبى يبصر وبى يبطش وبى يعيش ولئن سألنى لاعطيته ولئن استعاذنى لاعيذنه وما ترددت فى شيئ انا فاعله كترددى عن قبض نفسى عبدى المؤمن يكره الموت واكره مساءته ولابد له منه "

ولاريب ان هذا المؤمن المحب اذا اخلص فى محبة المحبوب الاوحد كان له ان يصنع ارادته بنفسه فهو بعون الله يسمع ويبصر وتصبح ارادته متناسيه تماما مع الحقيقة بعيدا عن الازدواجية .

وفى حديث آخر :

" انا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت به شفتاى "

وهذا هوالمعنى الخاص فى قوله تعالى :

" لاتحزن ان الله معنا " (التوبه : ٤٠)

وقوله النبى صلىالله عليه وسلم :

" ما ظنك باثنيين الله ثالثهما "

وقوله تعالى :

" وان الله مع المحسنين " (العنكبوت : ٦٩)

وقوله تعالى :

" ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون "
(النحل : ١٢٨)

وقوله تعالى :

" واصبروا ان الله مع الصابرين " (الانفال : ٤٦)

وقوله تعالى :

" أن معى ربى سيهدين " (الشعراء : ٦٢)

وقوله لموسى وهارون :

" إننى معكما اسمع وارى " (طه : ٤٦)

وهكذا تكون أولى خطوات صناعة الإرادة هى حب المحبوب الأوحد فبالله يهون علينا كل صعب ويسهل كل أمر عسير ويقرب كل بعيد وتزول كل هموم لأن العبد إذا أخلص للمحبوب الأعلى كان له إجابة سؤله ولذلك كان الإخلاص فى المحبة لله سبيل الإنسان للوصول الى قوة الإدراك وشجاعة القلب وهنا تكون الإرادة القوية الناضجة .

وقضية الأشخاص اليوم هى أن سلطان الشهوة لديهم أقوى من سلطان العقل والإيمان وتكون النتيجة قهر الضعفاء لأن الشر يأتى من ضعف الإدراك وبالتالى ضعف النفس ودناءتها فيصبح إنسانا بلا إرادة .

لذلك نؤمن بأن الحب والإرادة أصل كل فعل ومبدؤه لتظل قضية صناعة الإرادة ثم إدارة هذه الإرادة هى قضية أساسية فى مجتمع اليوم ولاسبيل اليها إلا بإستعادة الحب المفقود للنفوس الضائعة فإذا ماتمكن الإنسان من إستعادة إرادته كان بمقدوره أن يدير شئون نفسه .

ومن هذا المنطلق فإنه لكى يحقق الإنسان ذاته لابد له أن يستأصل كوليرا اللاأخلاق التى أصابت الجميع بعداوتها وعدواها .

ومادمنا قد عرفنا حقيقة مرض العصر وهو اللاأخلاق فإن علينا واجبا وهو أن نعود بالذاكرة الى البداية التى عرفت الدنيا فيها معنى اللاأخلاق .

ويقال أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

" لما خلق الله آدم جعل إبليس يطيف به
فلما نظر اليه ووجده اجوفا قال ظفـرت
به خلقا لايتماسك . . "

فلما نفخ الله سبحانه وتعالى فى آدم من روحه كان أول مانطق به سيدنا آدم عليه السلام :

" الحمـد للـه رب العالمـين " .

ثـم ماكـان مـن أمـر الله للملائكـة بالسجـود لآدم فسجـدوا جميعا إلا إبليس اللعين . . أبى إبليس أن يسجـد واستكبر وأخذه الغرور فعصى أمر الله بالسجـود فكان أول الخاسرين . . كان أول الخاسرين لأنه خرج عن أمر الله الذى خلقه وهنا نستخلص مفهوما واضحا وهو إن :

" الدنيا عرفت اللا أخلاق والعصيان أول ماعرفته على يد إبليس " ففى عصيان إبليس للخالق خروج عن الإنضباط برفض الإنصياع لأمر الخالق عز وجـل .

وبهـذا يكون عصيـان إبليس ترجمـة لسيكولوجية الحقـد الكامـن فى أعماقـه تجـاه سيدنا آدم لذلك كان حقد إبليس هو السبب الرئيسى فى محاولته الدائمه الإنتقام من آدم وأحفاده الى أن تقوم الساعة .

لهذا أتصور أن الحقد صفة من الصفات التى لم يفطر عليها الإنسان وإنما هى صفة كريهة تأتى من إيحاءات إبليس وعدائه لبنى آدم . . وكيف لايزداد حقد إبليس على سيدنا آدم وقد خلقه الله ونفخ فيه من روحه وأدخله الجنه لينعم بهنائها ونعيمها ثم خلق له حواء عليها السلام مؤنسة له فى وحدته . .

يقول الله سبحانه وتعالى :

" وقلنا ياآدم إسكن أنت وزوجك الجنة "

أى أن خلق الله سبحانه وتعالى لآدم وحواء سابق على دخولهما الجنة سويا لتكون سكنا لهمـا .

لكن الله سبحانه وتعالى حدد لهذين المخلوقين أول إلزام أخلاقى فى تاريخ دنيا

البشر وهو الإلتزام المطلق بتنفيذ ما أمر به وهو الإلتزام الأول بعدم الإقتراب من شجرة بعينها فى الجنـة .

وهذا فى رأيى والله أعلم أول ربط مادى للإرادة الإنسانية موجه نحو إدارة سلوكه فى إتجاه معين فكان أول ربط مادى للإنسان بالأخلاق التى تستمد جذورها من تنفيذ أوامر الله حرفيا .

إن الإعتراف بفضل الخالق هو أول صفة من صفات الأخلاق نحو الخالق ومن ثم فإن الجانب المعاكس لهذه الصفة هو أول مظاهر اللا أخلاق متمثلا فى تكـران فضل الخالق بإعتبـاره أول صفات اللا أخلاق أيضا . . وقد نجح إبليس فى الإنتقام حقدا من آدم وحواء عندما غرر بها فسلب إرادتها فى إدارة القرار النابع من ذاتها وهو ضرورة الإلتزام بأمر الله وضاعا لإنحراف إرادتها نحو أمل كاذب إدعاه إبليس هو ملك خالد لايبلى فقد صدقاه بأن الشجرة المحرمة هى شجـرة الخلد والملك الذى لايبلى فوقعا فى شـرك خداعه وحقـده أكل منها آدم وحـواء .

فكانت هذه الواقعة فى رأيى أول واقعة مادية فى التاريخ البشرى للا أخلاق ومنذ بدء الخليقـة نتيجة للمكيـدة القذرة التى دبرها إبليس لآدم وحـــواء .

أى أن أول خطـأ للإنسان على ظهر الدنيا هو نسيانه وعصيانه لأمر الله لكنه أخطـأ عن غير عمـد أو سبق إصرار بل جاء الخطأ نتيجـة إستدراج إبليس اللعين فسقطا فى فخ النسيان .

وكان السقوط فى أول معصيـة نتيجـة طبيعية للبحث عن خلود وملك زائف .

وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى :

" فوسوس اليه الشيطان قال ياآدم هل ادلك على شجـرة الخلد وملك لايبلـى فاكلا منهـا فبدت لهما سوءاتهمـا وطفقا يخصفـان عليهما من ورق الجنـة وعصى آدم ربه فغـوى "

" ثم كان ماكان من عقاب الله سبحانه وتعالى لهما لمخالفتهما أمره وتمثل هذا العقاب الأول لهما فى طردهما من نعيم الجنة وهبوطهما الى آلام الأرض . ."

وفى هذا يقول الله تبارك وتعالى :

" الم انهكما عن تلك الشجرة واقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين "

" إهبطوا بعضكم لبعض عدو لكم فى الأرض ومستقر "

ويقال عن سيدنا آدم والله أعلم أنه قال :

" كنا نسلا من نسل الجنة فسبانا إبليس بالخطيئة الى الأرض فلا نبغى لنا الفرح فى الدنيا ولكن الحزن والبكاء حتى نرد الى الدار التى سبينا منها "

ثم كان العقاب الثانى لهما بالتفرقة بينهما عند هبوطهما مكرهين الى الأرض الى أن إجتمعا فى عرفات بعد سنين طويلة .

ونعتقد والله أعلم أن حواء كانت السبب الرئيسى فى تشجيع آدم على القطف من الشجرة المحرمة فقد تمكن منها إبليس أولا ثم إستخدمها كوسيلة للضغط على آدم لينال منه أيضا ونؤيد وجهة نظرنا بهذا الخصوص بقول الرسول المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم :

" مارايت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن فقلن ومانقصان عقلنا وديننا يارسول الله : قال : اليس شهادة المراة بنصف شهادة الرجل . . فإن ذلك نقصان فى عقلها . . اليس إذا حاضت المراة لم تصل ولم تصم . . قلن بلى . . قال : فذاك نقصان دينها "

. . حل بابليس اللعين عقابا صارما فقد طرده الله من مكانته المتميزة التى كان يتمتع بها من قبل فقد كان خازنا للجنة فطرد من جوار ربه وأغلق الله باب التوبة نهائيا فى وجهه ليكون إبليس دائما رمزا للحقد والشر الى يوم الدين بعكس عباد الله الذين جعل الله لهم مدخلا للتوبة الى يوم الدين يعودون به الى طريق الإيمان كما حدث مع أدم وحـواء حيث لم يغلق الله أمامهما باب الرحمة والتوبة لإحساسهما الصادق بالندم الى أن أراد الله لهما الرحمة بقبول توبتهمـا .

يقول الله سبحانه وتعـالى :

" فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه "

وإستنادا الى ماتقدم أجد فى قصة الخلق كل مايريده الإنسان من إيضاح لقضية ومفهوم الأخلاق واللا أخلاق وصلتها الوطيدة بقضية الإرادة الإنسانية وأثرها فى إدارة إرادة الإنسان الخاصة والعامة وهذا نابع من تفهم الإنسان ويقينه أنه ماخلق أصلا إلا لعبادة الخالق وهو إن أدرك ذلك عن يقين فإنه سيدرك معنى العبودية المطلقة لله سبحانه وتعالى والإيمان بوحدانيته وهو مايصل بالإنسان الى حرية الإرادة النابعة من هذا الإيمان دون أى مؤثرات خارجيه .

لذلك فإن الإلتزام بالأخلاق متمثلة فى طاعة الله المطلقة يمكن أن يصل بالإرادة الإنسانية الى شفافيـة تجرد الفكر من كل شئ سوى التحقيق من حقيقة الوجود وإدراك معنى الأخلاق ذلك الكيان المعنوى الضخم والمفروض أن يعيش داخل ضمائر البشـر .

كيان يجب أن يجرى دائمـا من الإنسان مجرى الدم فى العروق . . هذا الكيان يترجم الى سلوك نابع من العقل الذى تميز به الإنسان عن غيره من الخلق بداية من لحظة الخلـق الأول ونطـق لا إله الا الله الخالق . . أى أن سلـوك الإنسان إذن نابع من قـراره ، وقراره نابع من إرادته فإن كان للإنسان السيطرة الكاملة على إرادته ما إستطاع الشيطان ولاقوى الشيطان أن تؤثر على هذه الإرادة وبالتالى أمكنـه أن يدير سلوكه بالطريقة المرضية .

وأمام هذه الحقائق كان لابد من مخاطبة الإنسان القابع فى داخل كل منا ، لقد أحتدم الصراع فى زمننا المعاصر عنيفا وخطيرا بين الإنسان فى داخلنا والإنسان الظاهر للناس .

وتصبح قضية الإدارة اليوم هى قضية إنفصـام الشخصية التى هى السمة الغالبة على مجتمع اليوم .

وواجهت نفسى . .

لكى أبـدأ بنفســـى . .

خيرنى الإثنان بينهما فكلاهمـا يرفض رفقة الآخـر . .

وطلبت مهلة للتفكير عسى أن يلهمنى عقلى القدره على الوصول الى قـرار . .

وعجزت لعقلى العاجـز عن التفكير والتدبير . .

ولجأت الى إنسانـى القابع فى أعماقى . .

فخلوت به بعيدا عن إنسانى الظاهر للناس . .

لم يشاركنا الحديث سوى نجـوم تصرخ كلما تطلعت إليها . .

هل أنت قادر على أن تدرك أسـرارى ؟ ؟

وأعجـز دائما عن إجابتها ولايسعفنى بالإجابة سوى إنسان الأعماق القابع فى كيانى ليرشدنى إلى إجابته الثابتة فى كل مرة ألا وهى أن الأسـرار يعلمها الخالق الأعظم وحده . . .

وسألنى إنسانى فى الداخـــل ؟ ؟

تـرى ماذا أنت صانع بى ؟

هل ستتخلى عـنى ؟

هل ستترك صحبتى ؟

لا تناور فلا حيلة لك معى فى المناورة لأننى أنا أعماق أعماقك ؟

هل ستعيش هكـذا بإنسانـك الظاهر للناس ؟

هل ستجعـله هكذا دائمـا يقهـرك ؟

هل ستظل عبدا لمغرياتـه ؟

هل سيظل النبض لامثا فى داخـلك ؟

هل ستظل نساؤك كأس ضياعك ؟

هل سيظل نفاقك ترياق خداعـك ؟

هل سيظل الغش رفيقا لك ولأتباعـك ؟

يحزننى أن تنطق مالا تعشقـه أطرافك ؟

يحزننى أن تهوى صريع الحب الكاذب فى أفكارك ؟

يحزننى أن تتجمد أطرافك ؟

يحزننى أن تنطفـئ الشعلة فى ذاتك . .

يحزننى تقنين الفسـق وسرقة جـارك . .

يحزننى حركة مسـرح لاتهـدأ . .

يحزننى أن الكل يمثل دور الآخـر . .

يحزننى أسطورة حب كاذبة . .

تكشفهـا أعماق فاسـدة . .

تلعقها نظرات مكبوتـه . .

والسم القاتل يتحـرك . .

يتحـرك دوما لايهـدأ . .

ينسكب لعابه فى المعنى . .

ينسكب حتى فى الداخـل . .

ليزيد سمـوم الفئران . .

لتزيد دوامـا سطوتهـا . .

ولتقلب حـالا أحـوالا . .

لا تفزع من ظلم الواقع . .

لا تجـزع من نار فساده . .

ولتهجـر دوما إنسانك . .

القابع فى ربطة عنقـك . .

مزهوا دومـا بثيابـه . .

منتعشـا بصراع السلطة . .

والسلطة نار لاترحـم . .

حتى سلطان مالكها . .

فلتهدأ نفسك كهدوئى . .

وليعشق قلبك إنسانى . .

أنا يوما أبدا لم أعشق . .

سلطانا لايرحم ذاته . .

هل تعرف نورا لايخبو ؟

هل تعرف حبا خفاق ؟

هو حبى ذاته للحب . .

هو عشقى للأمل الصادق . .

هو نور الحق المتلألئ . .

فى أظلم ظلمات حياتك . .

لن أوصد بابا فى وجهك . .

لن أغلق أبدا أسواره . .

أنتظر قدومك فلتسرع . .

فالتوبة باب متسع . .

مفتوحا دوما للتائب . .

فلتهرع حقا ولتسرع . .

فالله يحذر من ساعة . .

والساعة يوما لو وقعت . .

لا توبة فيها ولا تائب . .

وتطلعت الى السماء

التمست العفو من عند الله

قلت : يارب . .

حقيقة أنا معترف بالذنب . .

حقيقة أنى نادم نادم . .

لكنى . . حائر . . بل تائه . .

يسرقنى طوفان الدنيا . .

تبهرنى زينتها الكبرى . .

يسكرنى ترياق اللذة . .

يارب . .

أنت أعلم بى من نفسى . .

أنت أدرى بحقيقة أمرى . .

سرعان أعاودها نفسى . .

ودوما ألعن أخطائى . .

يقتلنى ضعفى . .

يقتلنى تيار المادة من حولى . .

يصعقنى جسد فتان

لامرأة هى جسد الشيطان

تنسينى فى زحف الشهوة . .

كم أنى قزم حيوان . .

يارب . .

تحرقنى ذاتى فى الداخل

بمجرد أن أخطئ خطئى

تلعننى نار الأخطاء . .

ويحطم أملى الإحباط

أنا عاجز حقا . . يارب

معترف أنى خطاء

لكنى ألتمس الرحمة

من عفو التمسه عندك

إمنحنى كنزا من عندك

المال مؤكد لن ينفع
والذهب تراب أخره
لكنى فى كنز هداك
ألتمسه . . بل إنى أطمع . .
يارب . .
رجائى . . ودعائى نحوك
أن تحجب شيطانى عنى
أن أنجو من هذا الكافر
يارب . .
إمنحنى القدرة على أن أنتصر على لافتتى الزائفة التى تزين صورتى أمام الناس . .
وأمنحنى قدرة أتغلب بها على عجزى عن مقاومة إنسانى الآخر القابع فى داخلى لأجابه به الناس ..
حقيقة إنه يحمل إسمى
حقيقة أنه يوقع بإمضائى
لكنه أبدا لايحمل عقلى
يارب . .
ساعدنى أن أنقذ ذاتى من ذاتى . .
ساعدنى أن أفقد نفسى . .
يقتلنا سلطان الآله . .
يصنعها الإنسان بعقله . .
ويصير أسيرا لقواها . .
تسكره الآله فى نومه .
تنقله بعيدا عن نفسه
تغنيه فى دنيا اللذه
تروس هى ذات الآله

أخرست العقل فلا عجبـا

أن تهرب نفسى من ذاتى . .

يـارب . .

لا أجـــد بريقـا للذة

فاحمينى من هذه الآله . .

وهكذا عزيزى القارئ يصنع الإنسان بعقله القيود التى يكبل بها نفسه فكأنه يضع القيود على إرادته ليفقد معها العقل الذى يصنع له كل شــئ .

وبهذا تكون الحقيقة الوحيدة من أجل إدارة واعية للإرادة هى حماية الذات صاحبة الإرادة بنور الإيمان فهو وحده ولاغيره أصل الحقيقة .

ومادمنا قد عرضنـا إلى أسباب الداء فإن أولى الحقائق بالتالى لإستعادة الإدارة لإرادتها هو ضرورة إستعادة الثقة فى الذات النابعة من عظمة الإيمان بالخالق الواحد الأحد بإعتباره المالك الأوحد للرزق والروح لاقبله ولابعده .

وهذا فى رأيى هو السبيل الوحيد من أجل التخلص من الصورة القبيحة التى تحول اليها الكم الأعظم من رجالات الإدارة فالهم الأول والشغل الشاغل لهم اليوم هو الإحتفاظ بالكرسى والهم الثانى هو إرضاء من يملك إبقاء صاحب الكرسى فى مقعده الذى يشغله وهكذا ولهذه الأسباب ظهرت فى مصر أغرب أشكال الإئتلاف فى العالم وهو اللوبى الخطير الذى يربط رجال الإدارة بمن يفترض فيهم أنهم يراقبونهم أمنيا وقضائيا فى المواقع المختلفة وتصبح فلسفة : " شيلنى وأشيـلك " هى أساس التعامل لتبدأ معها حلقة الفساد المعيبة بالإدارة والتى أدت الى تقيح فى الكيان الإدارى تظهر رائحته العفنه دائما فى ضياع حق الضعيف وتوهج جشع ونهم الطامعين .

وقد بلغت الجرأة بالفساد الإدارى أن يصنع أبطاله أمجـادا زائفـة على حساب الشعارات السياسية الملتهبة فالهم الآن فى فكر كثير من رجـالات الإدارة أن يحققوا مصالحهم الشخصية لتكبر حجم أرصدتهم فى بنوك أوربا وأمريكا من العمولات المنهوبة بحكم وظائفهم .

وقد حدث لى شخصيا كواحد من رجال الإدارة العليا فى هذا البلد المظلوم واقعة طريفة كمثال من ملايين الأمثلة التى تحدث كل وقت والقضايا بالنيابة الإدارية وغيرها تفوح منها روائح العفن الإدارى لمن يريد أطنانا من الوقائع التى تؤيد ما أقول لكننى هنا أخوض فى نموذج عملى لقضية شخصية كنت طرفا رئيسيا فيها .

ولقد بدأت قصتى مع المبدأ الذى رفعه رئيس الدوله بالإهتمام وتشجيع الصناعة الوطنية وهو مبدأ يجب أن يخلص له الجميع لأنه يعكس الذاتيه المصريه وهو أيضا أمر هام على طريق إستعادة الهوية المصرية بجوانبها المختلفة .

فقد أراد أحد رؤساء مجالس إدارة إحدى الشركات الصناعية الكبرى فى مصر أن يستغل مبدأ صنع فى مصر لحسابه الخاص فماذا فعل ؟

بدأت أحداث هذه الواقعه الحقيقيه معى فى إحدى زياراتى لألمانيا الغربيه بدعوى من إحدى الشركات المنتجة للأجهزة المنزلية المعمرة لحضور معرض دولى يقام سنويا فى مدينة كيلن بألمانيا الغربية وكان وكيل هذه الشركة الأجنبيه فى مصر حاضرا للمعرض أيضا ومقيم بفندق شيراتون ميونخ أى ذات الفندق الذى أقيم فيه .

وفى اليوم الثالث من الرحلة إستضاف هذا الوكيل نفسه فى حجرتى بالفندق بعد العشاء وتجاذبنا أطراف الحديث وكان جزءا منه كالآتى :

الوكيـل : لم تقل ياسيـد فلان هل لديك أولاد ؟

قلت : نعم عندى تامر وإيهاب ومحمـد

قال : هل ياترى إتخذت سبيلا لتأمين مستقبلهم .

قلت : الله كفيل بالمستقبل

قال : على الأقل لابد أن تضمن لكل منهم شقة يتزوج فيها .

قلت : الله يدبرهـا .

قال : ياأخى . . فلان بيه (يقصد رئيس مجلس إدارة الشركة الصناعية فى ذلك الوقت التى يعمل كوسيط بينها وبين مصانع المانيا) له شقتين يتملكهما فى ألمانيا خلاف أملاكه فى مصر . . يارجـل حرام عليك أنك لم تدبر أمورك حتى الآن من أجل تأمين مستقبل أولادك . .

قلت : الحقيقة لم أفكر فى هذا من قبل . .

قال : عموما لنكن صرحـاء (ويابخت من نفع وإستنفع) . .

أنا بصراحة رتبت مع فلان بيه (يقصد رئيس مجلس الإدارة المشار اليه سلفا)

إن إحنا من خلال شركتكم نعقد إتفاقا لتصنيع خمسة آلاف قطعه من منتج كـذا وسيكون تمويل العملية من جانب شركتكم وتقوم الشركة الصناعية بتسليم شركتكم المنتج تام الصنع بعد إنهـاء تجميعه فى مصر وبصراحه سيكون نصيبك فى هذه العمليه هو مائة ألف دولار فكان أن شكرته على أنه نبهنى الى الإهتمام بمصلحة أولادى قبل فوات الأوان .

ورغبة منى فى إنهاء اللقاء وعدته بتدارس الأمر فور عودتى من ألمانيا لمصر وبالفعل عدت الى مصر قبل موعدى بعدة أيام وتعللت بأن ظروفا خاصة طرأت فى مصر تستلزم عودتى .

وعدت فعلا الى مصر وشرحت ماحدث بكل أمانة لرئيس مجلس الإدارة فى شركتى أى لرئيسى المباشر .

ورغم توضيح الأمر لرئيسى فوجئت بأن الوكيل يحضر لشركتى بإنتظام وأنهى بالفعل الإتفاق على بنود هذا العقد المشبوه وعندما عرضت على الدراسة الخاصة بهذا العقد رفضتها بحكم وظيفتى وشرحت كيف يمكن أن يكون سعر المنتج الذى سيتم تجميعه فى مصر أعلى من المنتج تام الصنع الذى يتم إستيراده فما كان من رئيس الشركة عندى فى ذلك الوقت إلا أن تشاجر معى وأكد حقيقة أنه هو شخصيا رئيس مجلس الإدارة وليس أنا وكأنها عزبة تركها المرحوم أبوه وانتصرت السلطة الماجنة على شخصى المتواضع ونقلت الى وظيفة أخرى بنفس الدرجة والمستوى الوظيفى وهو أمر لم أهتم به لأن الدرجة متساوية ولكن الذى آلمنى هو إبرام التعاقد على هذه الصفقة رغم تحذيرى وبالفعل تم نقلى للوظيفة الجديدة حتى يتم تحرير العقد وأنهيت الصفقة بالفعل . . ألادهى والأمر أن الخمسمائة قطعة من المنتج موضوع العقد كان مفروضا أن يتم إستيرادها كمكونات مفككـة من الخارج ثم يتم تجميعها وتركيبها فى الشركة الصناعية المصرية فماذا حدث ياعزيزى القارئ ؟

قدمت الشركة الصناعية الموقرة مستندات رسمية توضح بالتفصيل المكونات المفككـة موضوع الرسالة الواردة من ألمانيا الغربية وهى التى سيتم تجميعها والإستفادة

بتخفيض الجمارك عليها لأنها سيتم تجميعها في مصر تحت مسمى صنع في مصر . .

فماذا كانت الحقيقة ؟ ؟

الحقيقة الأليمة أن الشركة الصناعية الكبرى زورت في الحقيقة وقدمت تفاصيل الأجـزاء المفككة مشمول الطرود الواردة واضحة في المستندات البنكية المقدمة إلا أن ضبط مشمول الشحنة بمعرفة مباحث التهرب الجمركي كشف الحقيقة وهي أن الوارد عبارة عن :

" أجهـزة تامة الصنع واردة من الخارج وليست مكونات مفككه كما بالمستندات وثبت أنها واردة من اليونان وليس من ألمانيا الغربية " وبالطبع كانت مشكلة كبيرة بذل رؤساء مجالس الإدارة كل جهدهم لطمس الحقيقة وسددت الشركة الصناعية المصرية الكبرى غرامة مليون جنيه للجمارك وأمكن بالود والمحبة طبخ الموضوع حتى لايحاسب أحد وتفتضح الحقيقة أمام السيد رئيس الدولة فيكتشف حقيقة الصفقات السابقة التي تمت بذات الأسلوب .

أليس هذا ياعزيزي القارئ هو أسلوب لبعض رجالات الإدارة الذين هم بلا إرادة يمكن الإعتماد عليها أو الوثوق بها ؟

فلماذا وبأي حق تخدعنا هـذه الشركات الصناعية وتعرض بعض منتجاتها على أنها صناعة مصرية كاملة رغم أنها واردة تامة الصنع من الخارج ثم نضع عليها صنع في مصر ولمصلحة من يتم هذا الغش القذر الذى شارك فيه عفن الإدارة وفسادها .

هذه واقعة حيقيقية عشتها لأنها حدثت معى وكنت شاهدا عليها . . والتساؤل الذى خرجت به من هذه التجربه الشخصية هو البحث عن مبرر لفقد رجال الإدارة لهويتهم .

لماذا يتصور بعض رجال الإدارة أن كراسيهم تعطيهم الحق في نظام " التكيـة " فلا حـرج عند الكثيـر منهـم في تحميل مواقع عملهم الوف الجنيهات سنويا تكاليف حقيقيه تنفـق على هـدايا تستغـل أسوأ إستغـلال فهـذه الهدايـا الثمينـة تصـل أحيانـا الى ألوف الجنيهات .

لقد عاصرت أنا شخصيا أحد رؤساء الشركات التواقة من عينة هؤلاء كانت هداياه ثلاجات وأجهـزة ڤيديو وأطقم فضيات كريستوفل وتليڤزيونات ملونة وسجاد شينواه وعطـور وكرافتات .

ولا نتصور عزيزى القارئ أن هدية العطور أو الكرافتات تافهة فإن لفة بسيطة بها خمسة كرافتات وخمسة زجاجات عطـور قد تصل قيمتها الى ألف جنيه مصرى ولامشكلة فى إرسال البمزيد منها هنا وهناك لمن بيدهم الأمر لكى يرضون عن مرسل الهدية ويؤيدون دائما بقائه فى كرسى السلطنه . .

من ياترى أعطى الحق لهؤلاء المسئولين من رجال الإدارة أن يقوموا بشراء ذمم الآخرين كل يشترى ذمة الآخر من أجل تمرير مصالحه بالهدايا بين الحين والاخر أو قلها اكثر صراحة بالرشوة المقنعة .

وهل يا ترى يمكن ان تضمن شحنـات الهدايا للرئاسات ولكبار المسئولين هنا وهناك !!! البقاء فى الكراسى ابدا والله .

فقد توالى خلال عملى عدد كبير من الرؤساء لم تنفعهم لاهداياهم ولا رشاويهم فى الحفاظ على المقعد .

لقد حقق كم كبير من رجالات الادارة العليا فى مصر ثروات ضخمة . حقيقة اننا من الصعب ان نضبط الثروات التى هربها الكثيرون خارج مصر من عمولات الصفقات التى ابرموها كل فيما يخصه وحقيقة ان الثروات بالداخل لايتحرك نحوها أحد الا اذا تم الابلاغ عنها وحتى فى حالة الابلاغ عنها فانه يمكن معالجة الامر بالحكمة وتمر العملية بسلام طبقا لمدى ثقل ونفوذ المشكو فى حقه .

اننى ادعو الى سداد ديون مصر من حسابات وثروات كل من تولى موقع مسئولية من بداية عام ١٩٥٢ وحتى الان واعتقد ان هناك ظواهر ومظاهر ليست خافية يمكن الاسترشاد امام رجال الضرائب الذين لا ينشطون الامع اصحاب المرتبات المضمونة للكادحين اما الثروات المنهوبة فهى دائما بعيدة عن النسيان .

الايمكن مراجعة اصل ملكية كل اسرة ومازاد عليها ؟؟؟؟

الايمكـن مراجعـة ملفـات اصحـاب السيـارات التـى تزيد قيمتها عن مائتى الف جنيه ؟؟ !!

الايمكن الاستعلام عن املاك اصحاب الشاليهات والفيلات فى فايد والمعمورة والمنتزه وجنوب وشمال سيناء وغير ذلك ؟؟ !!

الايمكن حصر الشقق المفروشة بالالاف والذين يمتلكون مئات منها في صمت زائع بعيد عن الضرائب .

فهل تقدم لنا مصلحة الضرائب حصرا لهولاء وكم سددوا من ديون مصر وكم سددوا من ضرائب على الاموال والمنقولات التى فى حوزتهم ؟؟ !!

ان آخر احصائية لعدد السيارات الملاكى فى مصر والتى تم ترخيصها بلغ حوالى ثمانمائة الف سيارة منها حوالى اربعين الف سيارة من النوعيات التى تزيد قيمتها على مائة وخمسين الف جنيه اى ان قيمة هذه السيارات وحدها يبلغ ستة مليار .

ترى ماذا دفع اصحاب هذه السيارات من ضرائب لمصر ؟؟ !!

ترى هل يمكن لاصحاب هذه السيارات ان يتنازلوا عن انفاقهم على سهراتهم وموائدهم الدائمة بفنادق الخمس نجوم التى تزدحم بها سياراتهم كل مساء ولو لشهر واحد كضرائب من اجل ديون مصر .

اننا فى حاجة الى استعادة اردانتا الحقيقية من اجل صناعة القرار حيث لاقرار بلا ارادة ولاقرار طالما هو لايخدم صالح المجتمع ككل لان الارادة الحقة تفرز ارادة جيدة فى صالح المجموع وليس فى صالح القلة القليلة .

لهذا فاننى اقول أنه حيث تكون حرية الارداة تكون حرية صنع قرار الادارة وحياده نظرا لابتعاده عن الانانية الفردية المتسلطة وهى قضية ارى انها مازالت قائمة ولم تحسم بعد نظرا لمافيا الادارة من اصحاب المصالح القابعين فى كثير من المواقع الادارية المؤثرة .

ان مافيا الادارة اليوم هم طبقة المنتفعين من رجال الادارة وهم اخطر الناس على الشرفاء واصحاب المبادىء .. كيف ؟

ان مثالا حيا عشت معه فى حياتى الوظيفية يوضح لك عزيزى القارىء كيف يمكن ان يحدث ذلك !!

توليت أحد المواقع الوظيفية واكتشفت مصائب سوداء ونهب وسلب بالملايين وبادرت بالابلاغ عنه للجهات المختصة وكانت لجان ثم لجان وانتهى الامر بالحفظ طبعا لماذا ؟

لان لصوصنا كانوا على قدر كبير من النفوذ وحسبنا الله ونعم الوكيل فيما جرى بعد ذلك .

لقد اجتمع اتباع اللصوص واعوانهم والحاقدين على نجاحى من الزملاء الذين الهب صدروهم الحقد على نجاحى رغم سنى الصغير نسبيا بالنسبة لهم ورغم نسيانهم الفرق بين عمر كبير بلاخبرة وعمر اقل مع خبرة فلجأوا للاسف الشديد الى الاغتياب والاتهام من اجل اسقاطى فهم ليسوا أهل شرف ومن ثم فالبقاء لمن شابههم من سوقه وملتقطى فتات .

تخيلوا اعزائى القراء ان الزملاء من حولى كانوا يرهقوننى بكثرة الاحضان والقبلات وهم قبلها بلحظات كانوا يعقدون المنتديات يتحدثون كذبا وظلما عن الشقة التى اشتراها لى احد الوكلاء بمائة وخمسون الفا وعن الحسابات بالعملات الاجنبية .

قدرة فائقة على الاختلاق والافتراء والظلم من مجموعة حاقدة لم تراجع مواقفها وتاريخها الملوث فتخيلت ان تلويث سمعة الشرفاء يمكن ان يجعل الشرفاء من طينتهم كلا ايها الحاقدون فالله سبحانه وتعالى خير حافظ وصفحتي النقية مازالت بيضاء ويكفينى فخرا تقارير الاجهزة الامنية المختلفة التي كان لها كل مرة الثناء والتقدير لشخصي البسيط واحمد الله اننى اعرف كيف اطعم ابنائى بقرش غير ملوث باموال مسمومة .

فما بالنا ببعض الناس من حولى وحولكم يتسترون وراء الاخوة والاخوات هنا وهناك لتهريب اموالهم المنهوبة وهم يتصورون ان فضائحهم السابقة لم تسبقهم واياديهم التى امتدت وتلوثت بالرشوة مازالت ملوثة مهما القوا الخطب وجمعوا المجالس للحديث عن الشرف .

وهاهو احدهم يسقط امام جهاز الكسب غير المشروع فلعله يوضح لنا كيف حصل على مئات الالوف التى اصبحت فى حوزته فجأة .

اننى بفضل الله لم اهتز لحظة امام اتهامات الحاقدين الكاذبة لاننى على يقين بان الله خير حافظ وها انذا مازلت فى موقعى بل ان الله قد غمرنى بفضله ومن على باكثر مما استحق لاننى امتلك بفضل الله ارادة حرة نابعة من ايمان صادق بالله يمنحنى دائما القدرة على صناعة القرار .

وهكذا تظل دائما حرية الارادة هى اساس صناعة القرار وهى القضية التى مازالت تبحث عن حسم فى مصر حتى الان بل انها فى مفهومى أحد اسباب فشل القطاع العام فى مصر عن تحقيق فائض يتناسب مع حجم استثماراته .

وهى بالطبع مسئولية الادارة المسئولة عن القطاع العام أولا وأخيرا لأنه ان تواجدت ادارة جيدة ذات ارادة واعية ونظيفة لافرزت حقائق تترجم الى ارقام ذات معنى فى معادلة الدخل القومى والدليل على مسئولية الادارة هو النجاح الذى حققته بعض وحدات القطاع العام بسبب الرجال الشرفاء الذين اداروها بشرف واخلاص بعيدا عن المحسوبية والرشاوى والهدايا والمنظرة الكاذبة وادعاء العلم والاعتماد على ناقص الخبرة وكدابى الزفة .

اننى ادعوا الله صادقا ان يقترب اليوم الذى نرى فيه ادارة تملك ارادتها القائمة على الايمان الصادق بالله يتفجر منه ايمان صادق مع النفس هو مفتاح الارادة الحرة النقية وعندئذ سوف نقول انها ادارة ذات هوية .

الفصل الرابع

الهوية العالمية المفقودة

الهوية العالمية المفقودة

اللهم يارب تقبل منى من خلال هذا العمل الذى أقدمه للقراء وهو كتابى هذا فلعل فيه ما ينتفع به الناس .. وتجاوز اللهم عن أى خطأ أو أخطاء أكون قد استدرجت اليها من غير قصد فأنت تعلم سريرتى وسريرة كل من خلقت .....

ولعلى عزيزى القارىء أصل معك الى حقيقة أن أصحاب الهوية المفقودة هم الناس فى كل مكان يجتمعون لا لشىء الا لهوى فى النفس وطمع فى لهو الدنيا وخداعها وعبادة لمواثيق الشيطان .....

قد أكون وفقت فى التصور ان كل انسان على ظهر الدنيا لم يعرف طريقه الى الحق سبحانه وتعالى ولم يلتمس نورا فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين والمرسلين فهو بلا شك انسان ضائع لاهوية له ولا معالم وهو انسان أنس حياة مادية زائفة زينها له عدو البشر ابليس اللعين فعقدا سويا اتفاقا على عشق المادة ونسيان العشق الروحانى لذات الله العليا ولعظمة الواحد الاحد فاذا كنا قد أمنا بفضل الله الواحد القهار دون ان نراه فلتكن الحقيقة الوحيدة المؤكدة التى نؤمن بها هى لا اله الا الله فهى الضمان الوحيد لهوية البشر فى كل زمان ومكان ....

ايها القارىء العزيز تعالى معى نبنى مصرنا على منهج نابع من ذاتيتنا التى فطرنا الله عليها سبحانه وتعالى ولنضع نصب أعيننا انه سيأتى يوم لامحالة نحاسب فيه على اعمالنا صالحها وطالحها حيث لاينفع مال ولاسلطة ولاجاه ولابنون ... يقول الله تعالى فى حديث قدسى أخرجه ابن منده فى التوحيد والديلى عن معاذ :

ان الله تعالى ينادى يوم القيامة بصوت رفيع غير فظيع :

ياعبـادى انـا اللـه لا الـه الا انـا ارحـم الراحميـن واحكم الحاكميـن وأسرع الحاسبين....

ياعبادى لاخوف عليكم اليوم ولاانتم تحزنون فاحضروا حجتكم ويسروا جوابا فانكم مسئولون محاسبون .....

ياملائكتى اقيموا عبادى صفوفا على اطراف انامل اقدامهم للحساب ...

وفى حديث قدسى آخر أخرجه أحمد والشيخان وابو نعيم وابن حبان عن ابى هريرة واحمد والفرندى :

ان لله تعالى ملائكة سياحين فى الارض فضلا عن كتاب الناس يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر فاذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا هلموا الى حاجتكم فيحفونهم بأجنحتهم الى السماء الدنيا فيسألهم ربهم وهو اعلم منهم :

مايقول عبادى ؟

فيقولون : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك

فيقول : هل رأونى ؟

فيقولون : لا ... والله مارأوك .....

فيقول : كيف لو رأونى ؟

فيقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عباده واشد لك تمجيدا واكثر لك تسبيحا .

فيقول : فماذا يسألونـــى ؟

فيقولون : يسألونك الجنــة ....

فيقول : هـــل رأوهـــا ؟

فيقولون : لو انهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا وأشد طلبا واعظم فيها رغبة ....

قال : فمـــم يتعـوذون ؟

فيقولون : من النــــــار

فيقول الله عز وجل : وهل رأوها ؟

فيقولون : لا والله يارب مارأوها .

فيقول : فكيف لو رأوها ؟

فيقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فرارا أو أشد لها مخافة .

فيقول : فأشهدكم انى قد غفرت لهم فيقول ملك من الملائكة فيهم فلان ليس منهم انما جاء لحاجة ..

فيقول : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم ...

ولذلك فانه لما كانت الحقيقة الوحيدة المؤكدة هي أنه لا اله الا الله سبحانه وتعالى فان عالم اليوم من شرقه الى غربه ومن شماله الى جنوبه هو عالم ضياع كامل ..

انه عالم بلا هوية لانه بعد لم يصل الى ذاتيته بل هو عالم جعل الالوهية للأنا ... انه عبد للأنا فيه ويصبح الاسلام هو الوسيلة الوحيدة التي يجب ان يحتمي بها الناس فى الدنيا كلها لكي تعود هوية هذا العالم الذى أصبح يقف لاهثا صامتا كاذبا امام ماديات الجهالة التي يعيشها ... ان الاسلام هو الحق والحقيقة لماذا ؟

لأنه يقوم على اساس تجمع عضوى حركى يجتمع على حقيقة العقيدة بهدف جوهرى هو ابراز وايضاح انسانية الانسان واثبات وجودها واعلاء شأنها على كل ماعداها في داخل الكيان الانسانى ..

واننى اتعجب على حد قول العلامة سيد قطب فى ظلال القرآن أتعجب من جهلاء العالم المعاصر وهم يتوهون بالناس فى مصطلحات انشائية لا معنى لها فتجد هؤلاء الجهلاء يتبارون فى شرح طبيعة الانسان وانه حيوان كسائر الحيوان لكنه ينفرد ببعض الصفات والخصائص التى ينفرد بها لكن هؤلاء الجهلاء لايستطيعون مهما أفاض عليهم جهلهم ان ينكروا المنهج الربانى فى عقيدة الاسلام والتى تجعل الانسان ليس كغيره من الخلائق بل منفرداً عليها بالكيان الروحى الذى تغرسه العقيدة فى اصل ذاتيه الانسان لكى يصل الى انسانيته .

فهذه العقيدة لا شأن لها بالنسب ولا اللغة ولا الارض ولا الجنس ولا اللون ولا المصالح ولا المصير المشترك لأنها صلات اقرب الى اهتمامات القطيع الحيوانى انما العقيدة الاسلامية الحقة هى فقط التى تفسر للانسان سبب وجوده ومنشأه والكون من حوله ومصيره فى هذا الكون فترده الى أمر آخر يتعلق بروحه وادراكه المنفرد عن سائر الخلائق والذى يقرر له انسانيته فى اعلى مراتبها لأنها تنبع من اختيار مطلق للانسان يتعلق كليا بارادته الحرة لاقيود فيها لا للون او نسب أو أرض بل هى ناتج الانصهار الروحى فى بوتقه الاسلام ومنهج العقيدة الذى جمع الشعوب الاسلامية بكل اقوامها واجناسها ... واذا كنت قد عالجت قدر اجتهادى مفهوم الهوية المفقودة فى مصر ومثيلها من البلدان فاننى هنا احاول فى عجالة فكرية ان أتصور الحقيقة بصدد فقدان العالم كله لهويته لان فقدان الهوية فى كل ارجاء الارض هو فى حقيقته قضية محورية واحدة ينبنى عليها السياق كله الا وهى قضية الالوهية والعبودية ....

ان الضياع العام الذي يعيشه عالم اليوم فى الشرق والغرب والشمال والجنوب انما يعود الى تيه واضطراب التصور فى حقيقة الالوهية والعبودية لله والانصراف بصفة جوهرية الى تأليه الاشياء والاوهام والمكان واصحاب الصولجان من سلطة أو مال أى ان الناس فى كل أرجاء الارض اصبحوا يعبدون أنفسهم فى صور قذرة وكريهة وبائسة ...

لذلك فاننى أسمى عالم اليوم هو عالم الفزع أو عالم القلق لأنه عالم انصراف الناس الى تملق الناس وانصراف عبوديتهم الى غير الله أى الى مخلوقات مثلهم وتحقق فى الناس فى عالم اليوم قول الله تعالى :

" وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام
نصيبا فقالوا : هذا لله - بزعمهم -
وهذا لشركائنا ! فما كان لشركائهم فلا
يصل الى الله وماكان لله فهو يصل الى
شركائهم ! ساء مايحكمون ! وكذلك
زين لكثير من المشركين قتل اولادهم
شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم
دينهم - ولو شاء الله مافعلوه فذرهم
ومايفترون وقالوا : هذه انعام وحرث حجر
لايطعمها الا من نشاء - بزعمهم - وانعام
حرمت ظهورها وانعام لايذكرون اسم الله
عليها افتراء عليه ! سيجزيهم بما كانوا
يفترون - وقالوا : مافى بطون هذه
الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا
وان يكن ميتة فهم فيه شركاء ! سيجزيهم
وصفهم انه حكيم عليهم - قد خسر الذين
قتلوا اولادهم سفها بغير علم وحرموا
مارزقهم افتراء على الله قد ضلوا وماكانوا
مهتدين "

(الآيات من سورة الأنعام من ١٣٦ الى ١٤٠)

ولاشك ان هذه الآيات العظيمة تصف حال الجاهلية القديمة فى حرثها وانعامها وهى جاهلية والله لا أجدها تختلف عن جاهلية عالمنا المعاصر !! كيف يكون ذلك ؟

ان الجاهلية القديمة جعلت عقول الناس تتجه الى تقسيم ارزاقهم فيجعلون والعياذ بالله جزاء منها لله (وهو اغنى سبحانه وتعالى عن كل ماخلق) ثم ما يلبثون ان يجورون على هذا الجزء .

يقول قتاده فى ذلك :

عمد ناس من أهل الضلالة فجزأوا من حروثهم ومواشيهم جزءا لله وجزءا لشركائهم وكانوا اذا خالط

شيء مما جزأوا لشركائهم فيما جزأوا لله واقروا ما جزأوا لشركائهم .

وقال سبحانه وتعالى :

" ساء مايحكمون "

لماذا ؟ لان هذه الجاهلية القديمة تغلبت فيها المصالح الدنيوية أو الوثنية من خلال مصلحة الهوى واهواء الشيطان مما أفسد على الناس حياتهم وهو ماكان قائما فى جاهلية العرب والجاهليات الاخرى للاغريق والفرس والرومان .

وهذه الامور لاتختلف فى مضمونها وجوهرها وفلسفتها عن الجاهلية الحديثة حيث اصبح العقل البشرى أسيراً لنظرية الرزق وكيفية الحصول عليه والفلسفة الخاطئة بان البشر كل منهم يملك للآخر القدرة على منح الرزق بقدر مايمتلك من سلطة أو من مال أى ان جاهليتنا الحديثة تقوم على التصرف فى الاموال بغير عدل الله وشرعه وهنا كما يوضح سيد قطب فى ظلال القرآن تلتقى الجاهلية الحديثة مع الجاهلية القديمة .. فيقول ان الجاهلية الحديثة تضغط على الناس بعادات وتقاليد كلفت وتكلف الناس حتى اليوم عنتا شديداً فى حياتهم بل هى تكلفهم ما لايطيقهم من النفقة وتأكل حياتهم وتفسد اخلاقياتهم ومع ذلك فلا يملك الناس اليوم الا الخضوع لها فهى جزء من سلوكهم فهم ملك لأزياء الصباح وازياء بعد الظهر وازياء المساء وملك للازياء القصيرة والازياء الضيقة والازياء العارية وانواع الزينة والتجميل والتصفيف الى آخر هذا الاسترقاق المذل ...

ويستكمل سيد قطب شرحه فيتساءل من الذي يصنع كل ذلك ومن الذي يقف وراءه ؟

فيقول تقف وراء بيوت الازياء العالمية وتقف وراءه شركات الانتاج العالمية ويقف وراءه المرابون فى بيوت المال والبنوك من الذين يعطون اموالهم للصناعات ليأخذوا هم حصيلة كدها ! ويقف وراءه اليهود الذين يعملون لتدمير البشرية كلها ليحكموها ولكنهم لايقفون بالسلاح الظاهر والجند المكشوف انما يقفون بالتصورات والقيم التى ينشئونها ويؤصلونها بنظريات وثقافات ويطلقونها تضغط على الناس فى صورة عرف اجتماعى غامض لايناقشه الناس لأنه ملتبس عليهم ...

وقصور منا عزيزى القارىء على حد تفسير سيد قطب ان نقرأ القرآن الكريم ونفهمه على انه حديث عن جاهليات قديمة بل هو حديث عن شتى الجاهليات الى ان تقوم الساعة وتتمثل مشكلة عالمنا المعاصر هو جاهليته القائمة على النظام المادى البحت الذى اصبح يتحكم فى السلوك ويقيم نظاما أرضيا الحاكمية فيه للبشر وليس لله .. لقد أصبحت الحاكمية اليوم تقوم على حاكمية العباد للعباد مما يجعل مجتمعات العالم اليوم قد عادت مرة اخرى الى عصر جاهلى ليس له هوية فهو عالم تحكمه العبودية البشرية واطماع الناس واحقادهم وانانيتهم المطلقة وانصرافهم الى ملأ بطونهم بشتى السبل ..

أى ان عالم اليوم اصبح الناس فيه عبيدا أرقاء ولكنه رق من نوع جديد إنه الرق للسلطة والحكام واصحاب المال والهوى ومافيا المخدرات والهيروين وتجار السلاح أى ان الناس خضعوا للأسياد الجدد فسلبوهم الحرية والكرامة وان صاغوها لهم فى أشكال صنعوها بمعرفتهم للحفاظ على شكلها والابتعاد عن جوهرها .

فياأيها الناس انه لاسبيل للنجاة من هذا الطوفان الا بالعودة الى الحقيقة الوحيدة وهى الايمان بخالق الكون الواحد الاحد لانه لا عبودية الا له سبحانه وتعالى وليس من سبيل الى حرية ارادة الانسان الا بعقيدة راسخة تؤمن بالحق سبحانه وحيث تكون الوحدانية لله فى عقيدة وكيان الانسان تكون انسانية الانسان القائمة على أنه لاسلطان الا من الله ومالم تقوم التشريعات البشرية على هذه الحقيقة فلا امل فى هوية لعالم اليوم ...

ولعل واقع الحال فى عالم اليوم يؤكد ذلك ... نعم يؤكد انه عالم بلا هوية نعم انه عالم يوقع بغير إمضاء ...

لقد أصبح الناس في كل انحاء الدنيا ليسوا أكثر من أناس يأكلون بأنفسهم كرامتهم وانسانيتهم وحريتهم من خلال عبوديتهم لأنفسهم وقد جاء ذلك نتيجة طبيعية لاتجاهين في العالم :

الاتجاه الاول هرب الناس من طغيان الكنيسة باسم الدين الزائف فثارت على الكنيسة التي اهدرت كل القيم الانسانية في عنفوان سطوتها الغاشمة وصكوك غفران تاجرت بها الكنيسة فظن الناس ان حريتهم وانسانيتهم لن تكون الا في ظل الانظمة الفردية أو الراسمالية أو الديمقراطية تحت أي مسمى من هذا القبيل ولذلك وضع الناس كل حرياتهم وضماناتهم لها من خلال دساتير وضعية هذه الدساتير الوضعية التي وضعها اصحاب المصالح واسفرت عن امتلاك الراسمالية للناس فوقع الناس اسرى للأقلية التي امتلكت كل شيء حتى النعم فصار الناس عبيداً للناس بعيدا عن الله سبحانه وتعالى ...

اما الاتجاه الثاني فهو هروب الناس في مجتمعات اخرى من قسوة واحتكار الانظمة الفردية وطغيان رأس المال فيها فهربوا الى الأنظمة الجماعية أو الاشتراكية أو الشيوعية ولتسمها عزيزي القارىء ماشئت فهي أنظمة لم تأت بجديد أيضا لأنها استبدلت العبودية لطبقة الراسمالية بالعبودية للدولة التي تملك المال والسلطان معا فاصبحت اكثر خطورة على حرية وكرامة الانسان من سيطرة الراسمالية وهكذا اصبح الناس في عالم اليوم أذلة ضائعين بلا هوية توضح ذاتيتهم بل أصبح المسيطر الان على الجميع هو سيطرة الأنا وزيادة طغيان البعض منا على البعض بقدر الأنا المسيطرة .

وهكذا اصبحت عبادة الحكام واصحاب السلطة اليوم بديلا لعبادة الاوثان لتعود الى عالمنا المعاصر جاهلية اكثر فظاعة من الجاهلية القديمة ولتصبح قضية عالمنا المعاصر اليوم هي محاولة استعادة ذاتية الانسان أو استعادة انسانية الانسان لمعرفة حقيقة هويته الضائعة وليس من سبيل لتحقق ذلك الا بالاخلاص والعبودية لله وحده والتخلص من عبادة الطغاة والكفاح فقط من اجل ربوبية الله وحدها في حياة البشر وهو كفاح للانسانية والحرية والكرامة والفضيلة ولكل معنى كريم يرتفع به الانسان على ذل القيود وامتهان الكرامة ودناءة الحياة (انظر سيد قطب في ظلال القرآن الجزء الثالث) .

اننى انوجه بندائى الى العالم كله ان يستعيد الهوية حتى يفيق الى الرشد لان طغيان المادة يجب الا ينسى العالم أن مشكلات اليوم التى يعانى منها قد يكون لديها الامل فى المستقبل القريب أو البعيد لحلها لكنه لن يستطيع إبدا أن يوقف زحف الموت نحوه .

فاذا كان علماء الماديات اليوم نسوا او تناسوا عظمة الخلق وعظمة الخالق فاننى اذكرهم بحقيقة الموت فهل منهم من يستطيع منع الموت ؟؟؟

فهل نجح العلماء فى البحث عن شىء يحقق الخلود ؟؟؟

أبدا ما استطاعوا ولايمكنهم ذلك ابدا لانه امر يأتمر بأمر الله ... فهل يقرأ معى الجهلاء من العلماء الذين نسوا الله فأنساهم انفسهم وهل يقرأ معى الطغاة والظالمين والمتحيرين والمنافقين هذه الابيات الشعرية الرائعة التى كان ابن الرومى يرثى ابنه فيها :

بكاؤكما يشفى وان كان لايجدى

فجودا فقد أودى نظيركما عندى

ألا قاتل الـله المنايـا ورميهـــا

من القوم حبات القلوب على عمد

توخى حمام الموت أوسط صبيتى

فلله كيف اختار واسطة العقـــد

على حين شمت الخير من لمحاته

وأنست من أفعاله آية الرشـــد

طواه الردى عنى فأضحى مزاره

بعيدا على قرب قريبا على بعـــد

اننا نحمد الله على الاسلام الذى جعل نظرتنا للموت نظرة موضوعية فهو ليس ذلك المجهول الذى يبعث الخوف والرهبة فى نفوس العباد لكنه الله ولاراد لقضائه وماكان لنفس ان تموت الابادن الله سبحانه وتعالى .

لقد آن الاوان لكى يعيد الضائعون حساباتهم حتى يعودون الى الله سبحانه وتعالى فهو وحده يملك النبض الذى يحيينا وليقرأوا معى هذه الابيات للشاعر فاروق جويدة :

دعنى وجرحى فقد خابت أمانينا

هل من زمان يعيد النبض يحيينا

ياساقى الحزن لاتعجب ففى وطنى

نهر من الحزن يجرى فى روابينا

كم من زمان كئيب الوجه فرقنا

واليوم عدنا ونفس الجرح يدمينا

هل من طبيب يداوى جرح أمته

هل من إمام لدرب الحق يهدينا

من يرجع العمر منكم من يبادلنى

يوما بعمرى ونحى طيف ماضينا

أين الامام رسول الله يجمعنا

فاليأس والحزن كالبركان يلقينا

هل من زمان نقى فى ضمائرنا

يحيى الشموخ الذى ولى فيحيينا

ياساقى الحزن دعنى اننى ثمل

إنا شربناه قهرا ما بأيدينا

العمر فى الحلم أودعناه من زمن

والحلم ضاع ولاشىء يعزينا

حزنى عنيد وجرحى أنت ياوطنى

لاشىء بعدك مهما كان يغنينا

فلعل الله سبحانه وتعالى يعيننا ويهدينا فهو نعم المولى ونعم المصير .

خاتمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو خير قول أختتم به هذه الأفكار التى تناولتها فى فصول كتابى الذى ارجو من الله ان يكون قد قدم شيئا ينتفع به الناس فهو قبل ان يكون نقدا لسياسة أوتشريحا لنظام هو قبل كل شىء مراجعة للسلوك عن حقبة من الزمن فى تاريخ مصرنا العزيزة .

ولتعلم عزيزى القارىء ان هذه الحقبة بحلوها ومرها ومهما كان فيها من سلبيات او مشاكل ضخمة توارثها الرئيس مبارك منذ تولية الحكم فأن بداية الحل تكمن فى ان نبدأ بنقد أنفسنا كما اوضحت فصول الكتاب للتعرف على حقيقة المرض وسبل العلاج .

وفى اطار ماسبق استعراضه فان الرئيس مبارك ليس قادرا على اختراع معجزات من أجل تقديم الحلول لأنه لايملك عصى سحرية تحرك المعاول تلقائيا نحو البناء بل ان المطلوب ان نضع ايدينا فى يده وان يبداء كل منا بنفسه فى مراجعة صادقة مع النفس من أجل بناء جديد نقى .

لنجعل اساس البناء الجديد هو :

" نحن نعمل من أجل مصر "

لأن الانتماء الحقيقى لمصر لن يتحقق الا بالصدق مع كل نفس فاذا ما تطهرت النفوس توحدت الصفوف وتبددت غيوم الغش والنفاق والسلبيات وعند ئذ يكون الجميع قد وضع أول الاقدام على طريق البناء .

لقد قدم الرئيس مبارك مبادرات متكررة بزياراته الميدانية لبعض المصانع وبعض المشاريع الضخمة ورفع دائما شعار صنع فى مصر وهنا نرفع شعارنا المقتبس من شعار صنع فى مصر وهو " نحن نعمل من اجل مصر " لان الجانب الغير منظور فى شعارنا صنع فى مصر هو انماء العقيدة المصرية وهو فى اعتقادى اول خطوات استعادة الهوية المصرية .

عزيزى القارىء :

هل يمكن أن يكون للرئيس سواعد بعدد سواعد ابناء مصر ؟؟

ان هذا بالطبع امر غير معقول لكنه كحاكم يتلمس كل السبل من أجل علاج المشاكل المزمنة لكنه وحده وبدون اخلاص غير محدود من القمة حتى اصغر مسئول لايستطيع ان يحقق ما يتمناه لبلدنا مصر فهل آن الاوان لنبدا جميعا وفى آن واحد بوضع ايادينا فى يد الرئيس باخلاص وعزم صادقين من اجل اعادة البناء .

اننى على ثقة عزيزى القارىء ان مصر بعزيمة واخلاص ابنائها تستطيع ان تتجاوز باذن الله كل المحن وليس أصدق دليلا على ذلك من الحس الواحد الواعى الذى اجتمع عليه ابناء مصر فى اكتوبر ١٩٧٣ وهو حس وطنى نابض أرى انه لم يتم استغلاله حتى الان رغم انه فرصة هائلة وغير محدودة لبدء صفحة جديدة مع هوية مكتملة وناضجة خاصة وان الرئيس هو احد قادة اكتوبر وهو ليس من اتباع أحد من السابقين او صاحب مدرسة تسير على نهج سبق ان عاشته تجربة ما بعد ١٩٥٢ فهل نذيب كل الحواجز ونبدأ معه بروح اكتوبر العظيم فمعها ستزول كل الحواجز والسدود بأذن الله .

المؤلف

حسنى شافعى

١٠ حسن مظهر مصر الجديدة

اكتوبر ١٩٨٩

المراجع

- المرجع الاعظم القرآن الكريم

كتب دنيوية

- حكمة الغرب تأليف : برتراند رسل ترجمة : د . فؤاد زكريا
- تكنولوجيا السلوك الانسانى تأليف : ب . ف سكينر ترجمة : د . عبد القادر يوسف
- التخطيط للتقدم الاقتصادى والاجتماعى : تأليف : د . مجيد مسعود
- التخلف والتنمية : د . محمد دويدار
- التخلف والتنمية تأليف : شارل بتلهايم ترجمة : د . اسماعيل صبرى عبد الله دار المعارف القاهرة ١٩٦٧
- المشكلة الاقتصادية والاختيار السياسى : د . عمرو محى الدين القاهرة ١٩٨٢
- احياء علوم الدين : للامام الغزالى
- الانسان بين المظهر والجوهر تأليف : اريك فروم ترجمة : سعد زهران
- المسلمون والاستعمار الاوربى لافريقيا : تأليف د . عبد الله عبد الرازق ابراهيم
- جدد حياتك : محمد الغزالى
- الاسلام والاقتصاد : د . عبد الهادى على النجار
- التنمية الاقتصادية فى المنهج الاسلامى : عبد الحق الشكيرى

- صناعة الجوع : تأليف : فرانسيس مور لابيه جوزيف كولينز
- المتلاعبون بالعقول تأليف : هوبرت أ . شيللر ترجمة : عبد السلام رضوان
- العالم الثالث وتحديات البقاء تأليف : جاك لوب ترجمة : احمد فؤاد بلبع
- الدين والدولة والثورة : د . رفعت سيد احمد
- الاسلام واصول الحكم : على عبد الرازق
- العدالة الاجتماعية فى الاسلام : سيد قطب
- نظرات فى تاريخ مصر : جمال بدوى
- أفكار الأستاذ الكبير : مصطفى أميـن
- مقالات للأستاذ الكبير : ثروت أباظـة
- الاقتصاد ومحنة الاقتصاديين : د . حازم الببـلاوى

مسرحيات الشاعر العظيم : احمد شوقى

الاتحافات السنية فى الاحاديث القوسية : الشيخ محمد المدنى

الفهرس

تنويه وشكر

يود المؤلف أن يوضح ان افكاره واستنتاجاته الموضحة فى هذا الكتاب انما هى تعبير عن رأى شخصى بحت نابع من حبه الغير محدود لمصرنا الحبيبة .

كما يتوجه بالشكر لكل الاساتذة اصحاب المراجع الموضحة بالكتاب لما قدمه فكرهم الناضج من فائدة للمؤلف استرشد بها واستعان كما يتوجه بالشكر للقراء الاعزاء على الوقت الذى صاحبوا فيه أفكار الكتاب فلهم جميعا كل الحب والامتنان .

المؤلف فى سطور

- حسنى عبد الحميد شافعى
- من مواليد ١٩٤٥ - القليوبية .
- حاصل على بكالوريوس الاقتصاد والعلوم السياسية ١٩٦٦ .
- حاصل على دبلوم الدراسات الاقتصاد ية - معهد البحوث والدراسات - جامعة الدول العربية .
- حاصل على دبلوم العلوم المالية والاقتصادية - كلية الحقوق - جامعة الاسكندرية .
- صدرت له كتب أدبية :
  - دبلوماسية ابليس - رواية طويلة - طبعة أولى نفذت .
  - الضمير التائه - مجموعة قصص قصيرة - طبعة اولى نفذت .
  - صدرت له دراسة سياسية بعنوان " التسلل الاسرائيلى فى افريقيا " قدمت للمجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب من أربعمائة صفحة .
  - زار العديد من البلدان العربية والاجنبية منها السعودية والكويت وقطر والبحرين واليمن والعراق والولايات المتحدة وهولندا واليونان والمانيا الغربية .
  - يعمل حاليا رئيسا للقطاع التجارى بشركة مصر للاسواق الحرة التابعة لهيئة القطاع العام للتجارة الخارجية بوزارة الاقتصاد .

هذه سطورى عزيزى القارىء أخطها لك ولى ولكل بنى وبنى لايعترى قلمى حين يكتبها أى خوف أوتردد فأمانة الكلمة وصدق الرأى هما اساس صدق الرؤية وهما أغلى وأعز ما امتلكه اليوم فى هذا الزمان المكفهر الذى تقيح فيه المنطق واختلط فيه الحابل بالنابل وتفوقت فيه الالام على حدود الازمنة والامكنة فتحولنا بصنع من أنفسنا الى مخلوقات عجيبة ضلت بعض الوقت أو كل الوقت لا أعلم .

وقد يعود البعض منا الى رشده أحيانا فيتذكر أنه انسان حمل الامانة منذ بدء الخليقة وعليه أن يفيق تماما حتى يتمكن من حملها كل الوقت قبل أن يفوت الأوان .

لابد اذن من الفكاك من الهوة السحيقة التى وقع فيها الجميع من حولى . وبعيدا عن الفلاسفة والمأجورين لابد أن ننزع النصل المسموم من أجسادنا حتى تدب الحياة مرة أخرى فى دمائنا .

وعندئذ نستطيع أن نقول : نحن لنا هوية

حسنى شافعى

رقم الايداع بدار الكتب ٧٦٠٩ / ٨٩

عزيزي القارئ

هذه سطوري أخطها لله ولي ولكل بني وطني لا يعتري قلمي حين يكتبها أي خوف أو تردد فأمانة الكلمة وصدق الرأي هما أساس صدق الرؤية وهما أغلي وأعز مانملك اليوم في هذا الزمان المكفهر الذي تقيّح فيه المنطق واختلط فيه الحابل بالنابل وتفوقت فيه الآلام علي حدود الأزمنة والأمكنة فتحولنا بصنع من أنفسنا إلي مخلوقات عجيبة ضلت بعض الوقت أو كل الوقت لا أدري !!

قد يعود البعض منا إلي رشده أحيانا فيتذكر أنه إنسا ن حمل الأمانة منذ بدء الخليقة وعليه أن يفيق تماما حتى يتمكن من حملها كل الوقت قبل أن يفوت الأوان ... لابد إذن من الفكاك من الهوة السحيقة التي وقع فيها الجميع من حولي ...

وبعيدا عن الفلاسفة المأجورين لابد أن ننزع النصل المسموم من أجسادنا حتى تدب الحياة مرة أخرى في دمائنا

وعندئذ نستطيع أن نقول :

نحن لنا هوية

حسني شافعي

خمسة جنيهات